ولعِوق أحلوى

ولاء عوده أبو غندر

الكتاب: ولعِق الحلوى

المؤلف: ولاء عوده أبو غندر

النسخة الإلكترونية المعتمدة.

الرقم الدولي للكتاب: ٩-٤٢٧-٠٢-٩٩٤٨-٩٧٨

هذه الرواية مستوحاة من التاريخ وليس من الضرورة أن تصف الأحداث التاريخية كما وقعت، لكنّها أيضاً ليست ببعيدة عنها؛ فهي تجسد كثيراً من حقائق تلك الحقبة التاريخية، الممتدة من عام ١٩٨٠م وحتى العام ٢٠٠٨ م الواقعة على أرض "سراييفو "

بها شخصيات حقيقة وأخرى وهمية، امتزجت ببعض؛ لتجسد السلام وذكريات الحرب و"الحب" الذي يتجاوز كل الاختلافات، هادماً العنصرية العرقية التي يذكيها أرباب الحرب لتبرير جرائمهم.

ولتكون هذه الرواية...

"ولعِق الحلوى" .

إلى من جاورتهم بكتاب، وعرفتهم بكتاب، وألفتهم من أجل كتاب.

إلى مجموعة القراءة "حياة واحدة لا تكفيني"

صديقاتي في عمان .

هل يزيد المرء عمراً على عمره ؟

إن لم يعانق الكتب ويقرأ الحياة ؟!

فحقاً حياة واحدة لا تكفيني، وحياتي بينكم هي أجمل حياة .

في جلسة الاستئناف الثانية.

وقفتْ الشاهدة الأخيرة أمام القاضي وأقسمت بقول الحق.

أشار لها القاضي بالشروع في نطق الشهادة.

تنفست بعمق ثم شرعت قائلة بصوت قوي وثابت: في عام ١٩٩٥م وبجوار القسم الذي فُصلت فيه نساء " سربرنيتشا " وأطفالها عن رجالها وصبيانها، ربّتَ هذا الرجل على رأسي. حيث لم أكن أتجاوز حينها العاشرة من عمري.

ثم رفعت إصبعها مشيرة إليه وتابعت: وقام بإخراج عود حلوى من جيبه وأعطانّي إياه.

دقق القاضي النظر إليها بينما علت نظرات الدهشة والاستنكار على الجميع، ولم يخلُ منها وجه المتهم أيضاً!

شهقتْ بعمق محاولة دفع دموعها وتابعت مؤكدة: نعم، لقد أعطاني عود حلوى، وما إن استدار حتى رفع يده مشيراً لجنوده بالإبادة. نعم، لقد قال بالحرف الواحد "أبيدوهم". وما هي إلا لحظات حتى بُدِأ التنفيذ.

لقد أعطاني عود حلوى وقد شغفت بها آنذاك..

صمتت قليلاً وهي تشعر بدموعها التي سالت على وجنتيها لتصطدم بشفتيها ثم تابعت بتأثر: نعم ، "رادوفان" هذا لم يهبني فرصة لعِقها.

محكمة لاهاي الدولية ٢٠٠٨م.

الفصل الأول: الخيـــــــط .

ما إن يغادرنا الخوف، حتى تنحل معه كل الخيوط المتشابكة التي أعتمت منّا الذاكرة؛ فتفيض الذكريات وكأنّها لن تتوقف قط.

في "البوسنة" الدولة التي يطلق عليها القدس الصغيرة، وبالتحديد في العاصمة "سراييفو" تبدأ حكايتي، في العام التاسع بعد انتهاء الحرب الأخيرة، أي عام ٢٠٠٤م.

ورغم أنّي من مواليد ١٩٨٥م وقد عاصرت الحرب، إذ كان عمري حينئذ عشر سنوات إلا أني أملك "ذاكرة من بياض".

فلم يبقَ شيء في ذاكرتي من بشاعة تلك الأيام.

و طوال سنوات السلم التي تلت الحرب، ما كنتُ لأرهق نفسي وأبحث عن ما فقدته؛ إذ كانت أمي "أرجينا" دائماً ما تقول لي: "ما الفائدة من تذكر أشياء موجعة ؟!" ولكن في العامين الأخيرين بعد أن خرج ذلك "الرجل" من السجن وبتُ أراه مجدداً وهو يبتسم ويضحك وحتى وهو يعبس، حتى ضحلتْ تلك الحجة وتبدد خوفي وبدأت تنمو لدي فكرة أخرى:

"إنّ الإنسان بلا ذاكرة، إنسان بلا روح، إنسان فقد ذاته ".

****

ما أن نزلتُ من الترام، بعد أن شاهدتُ نتائج قبولي بجامعة "سراييفو" والتي انبثقت كل أحلامي منها وإليها، رغم أني وقتها لو سُئلت لمَ اخترتُ "الحقوق" لما وجدتُ إجابة!!

قفزتُ راكضة كعادتي الطائشة أسابق خطواتي عابرة طريقي من أمام مدرسة "خسروبك"* التي كنتُ في يوم ما طالبة فيها.

لا أعلم لمَ نشعر بحاجتنا للاحتضان في اللحظات التي نكون فيها محملين بالفرح!!

اللحظات التي تغمرنا فيها السعادة ونشعر معها بالانتشاء يسري بقلوبنا، نتمنى فيها لو ينحل فاصل الوقت وجدار المسافات، حتى نرتمي سريعاً في أحضان من سيشاطرنا الفرح.

ومن سيشاركني الفرح الآن غير "أرجينا "؟! أمي التي ربتني، وأكثر إنسانة ارتبط معها برابط الأسرة؛ بل إنها هي من علمتني معنى الأسرة، كما أن ذاكرتي البيضاء تكاد تخلو من كل شيء عدا "أرجينا".

"أرجينا" هي أكثر من سعت لذلك ومن شجعتني لإكمال دراستي، لأكون صادقة هي أيضاً من دفعتني لاختيار كلية الحقوق، حتى

إن كان ذلك يعني أن تنتقل "أرجينا" من عمل لآخر لتوفير المال لدراستي.

"أرجينا " هي أكثر من عاقبتني بشدة لتراخيّ المتكرر، ولكسلي الدائم أو لمجرد تفكيري فقط بترك المدرسة والبحث عن العمل.

مدرسة الغازي خسرو بك : هي أقدم مؤسسة تعليمية في البوسنة والهرسك وتقع قبالة جامع خسرو بك وتعد هذه المدرسة من إحدى المدارس القليلة في العالم التي استمر فيها التعليم منذ ٤٧٠ عاماً أسسها الغازي خسروبك حفيد السلطان العثماني بايزيد الثاني عام ١٥٣٧ و هو أشهر أمراء البوسنة والهرسك قاطبة وباني سرايفو الحديثة.

عبرتُ الشوارع متجاوزة محلات القهوة البوسنية الشهيرة ومحلات المشغولات اليدوية والنحاس ومحلات الفاكهة، وكنتُ أرفع يدي مشيرة بالسلام لأصحابها فغالبيتهم يقطنون في نفس الحي وكان رد السلام يصلني متبوعاً بتعليقات على ركضي السريع.

الحاج "حسن وبهيرة" كانا هما أكثر من صرخا بصوت عال لإيقافي: تمهلي يا "آمـــــــنه".

لكني ضحكتُ ولم آبه بذلك واستمررتُ في الركض كطفل يعود راكضاً إلى المنزل بعد أن أمضى ساعات طويلة باللعب خارجه، لا أحد يستطيع إيقافه سوى والدته أو طبقٍ من الطعام.

منزل عائلة "أرجينا" لا يختلف عن أي منزل بوسني هنا، لازالت جدرانه تحتضن آثار الحرب وتقف شاهدة على حجم الويلات التي عبرت من هنا.

رغم أن "أرجينا " كانت تحرص دوماً على وضع أصيص من الأزهار على شرفة كل نافذة، وينتهي بها المطاف دوماً بتوبيخي في حال اعتمدت علي لسقايتها ونسيتُ كعادتي، وكانت تعلل ذلك بفعل والدتها؛ إذ كانت تفعل ذلك دوماً قبل الحرب، وكانت تقول لها: في كل الأحوال، لابد أن نزرع الورد .

وما إن وصلتُ المنزل أخيراً، ألهث أنفاسي، وأدرت الباب الخارجي، حتى أبصرتُ يميناً جارنا "رادوفان" والذي كانت تناديه "أرجينا" دوماً برادو! ولا أعلم حقيقة ذلك إن كان من قبيل الاختصار أم أنه يكره اسمه!! فأمي "أرجينا" هي أقرب شخص له.

كان يجلس في حديقة منزله على كرسي خشبي و أمامه طاولة خشبية وضع عليها كوباً من القهوة وبيده ممسكاً بجريدة.

"رادوفان "ربما هو الشخص الوحيد هنا الذي يجعلني أقف وأنظر إليه بكل تمعن.

فذلك الرجل الذي تحيطه هالة من الصمت والهدوء، هالة تجعلك لا تتجاوزها إلا وأنت ممتلئ بالفضول تحاول كشف أغوارها؛ بل كثير ما كنتُ أشعر بأن هذا الشخص يرتبط بجزء من ذاكرتي ولو كان ضئيلاً، ربما من أجل ذلك كنتُ أعلل وأعزي مراقبتي له وانتهاكي لبعض خصوصياته، فالإنسان هو أكثر مخلوق قادراً على خلق كل التبريرات إن أراد إسكات لوم ضميره.

ذلك الرجل في الرابعة والثلاثين من عمره، أي بعمر أمي "أرجينا" تماماً.

ذا بشرة بيضاء شاحبة وعينان ذات لون مُزرق يميل للرمادي، إن أردت وصفها بدقة فلا يمكن وصفها إلا "بالغرابة" !!

فهي باردة رغم حدتها واتقادها، وكأنّ البرود ذاك قد تلبسها على غرّة من الزمن حتى أصبح جزءًا يناقضُ ملامحه! تشعر دوماً بأنها خاوية أو أنها تنظر لبعد خاص بها لا يمكن لعينيك أن تصل إليه.

تلك العينان الغريبتان فوقهما حاجبان متوسطا العرض بلون بني فاتح، كما شعره الناعم الذي يصل تحت أذنيه، والذي عادة ما يرفعه للخلف، ليبدو بمظهر رجولي ولكنه وفي أحيان كثيرة ما تعانده خصلاته الأمامية فتسرح ناشرة نفسها على جبهته بإهمال؛

ليبدو حينها مظهره كطفل وديع، كان في أحيان كثيرة لا يكترث لمظهره ذاك أمامي وأمام "أرجينا" ولا يكلف نفسه عناء إبعادها.

له شارب خفيف، وشفاه جداً ضيقة، وأنف طويل وحاد وأقنى الأرنبة.

ذلك الرجل أراه يستيقظ باكراً كل صباح قبل موعد عمله، يجلس في حديقته يرتشف القهوة البوسنية، ويقرأ كتاباً في صمت، أو يتصفح الجريدة بشغف وكأنه يترقب خبراً.

ذلك الرجل لم يثبت عينيه ولا لمرة واحدة ناحيتي، وكان ذلك الأمر كثيراً ما يثير حيرتي رغم أنه يجلس ويتحدث مع "أرجينا" ويشاركها بشكل يومي كوب القهوة أو عصير "سمرياكا"* إلا أن كلماته معي لا تتجاوز الإشارة بالسلام أو السؤال عن صحتي فقط، وكأنه بذلك يتجنبني؛ بل كنتُ أعزي ذلك أحياناً بأنه ربما قد شعر بمدى شغفي وفضولي به وربما قد لمحني وأنا أراقبه ذات مرة، ولكن حتى هذا الاحتمال لم يكن ليردعني.

ورغم أن "أرجينا" أكدت لي بأن "رادوفان" جارهم منذ أمد بعيد، إلا أن ذكرياتي معه في أيام طفولتي أعني من بعد سن العاشرة تحديداً -وهو العمر الذي بدأت العيش به مع "أرجينا" - لا تتعدى مشاهد بسيطة.

---

*عصير سمرياكا : عصير مشهور جداً في البوسنة طعمه يشبه الزنجبيل.

فكل ذكرياتي معه تتعلق بأعواد الحلوى التي كان يحرص على تقديمها لي فور رؤيتي؛ إذ كان يعطيني عود حلوى ويدسها بكفي ثم يخرج واحدة أخرى ويفتح قرطاسها وما إن يهم بوضعها في فمه؛ ليلعقها، حتى يتوقف ويبعدها عن فمه منتفضاً.

لازلتُ أذكر صمته بعدها في كل مرة يفعل فيها ذلك وعينه التي تسبح في السماء فيكتسحها بياضاً وكأنها غرقت في ذكرى تؤرقه، ثم يعود ويدسها هي الأخرى بين كفي ويغادر.

لذا في كل مرة كنتُ أعلم بأني سأحوز على الاثنين معاً؛ لذلك لم أكن لأفكر يوماً بفتح قرطاس الأولى؛ بانتظار أن ألعق الثانية.

وكنتُ أخبرُ "أرجينا" ذلك وأقول بتهكم "جارنا هذا يفتح الحلوى ولا يلعقها ثم يعطيني إياها"

فكانت ترد بهدوء ولكن لهجتها كانت تحوي نوعاً من التوبيخ قائلة: " أتمنى أن يأتي يوماً يستطيع فيه مشاركتك لعقِها "

وكل ما عرفته عن ذلك الرجل بأن والدته ووالدة أرجينا قد ماتتا سويّا أثناء الحرب، وبأنه شارك في الحرب مع الصرب وسجن بعدها لسبع سنوات.

ومع هذا "أرجينا" لا تزال تصفه بالجار والصديق!!؛ بل الغريب أن كل الجيران كانوا يحبونه!!

وضع الجريدة على الطاولة أمامه، ثم...

وكأنني رأيتُ بسمة فاترة على شفتيه، هل انتبه بأنّي كنتُ أنظر إليه كل ذلك الوقت وهل كانت تلك الابتسامة لي؟!

حركت خطواتي بثقل وحينها فقط ..

رأيته وقد استدار نصف استدارة ناحيتي، ابتسم بود لتحيتي ثم عاد ليشرب من كوب قهوته.

انتفضتُ بارتباك ولا أعلم لمَ ؟! ربما لأنّنا حينما نطيل النظر لأحدهم وهو شارد، يشابه عملنا ذلك اللصوصية، ولكنّها لصوصية من نوع مختلف، لصوصية لا تخرج منها بشيء مادي تسرقه، ولكن بشعور يربط على قلبك ويقيدك كلما أطلت النظر، بشيء يشبه اللذة ستضعك بين قضبانها؛ لتكتشف ذات يوم بأنك قد نلت جزائك العادل بالأسر!!

هل كانت هذه تحية لي من نوع ما؟! أم أنه كان يعرف بأنّي دوماً ما كنتُ استرق النظر إليه؟! أم أنه قرأ تعابير وجهي وشعر بسعادتي فأراد أن يشاطرني الفرح ؟؟!!

حركتُ ساقيّ وما إن هممتُ بفتح الباب، حتى وصلني صوته قائلاً : "آمنه".. مبارك لك قبولك بالجامعة .

عدتُ خطوة للوراء والدهشة تملأ عيني، ثم استدرت ناحيته ببطء وقد رسمت على شفتيّ بسمة غبية لم تخفِ اضطرابي ثم قلت متسائلة: لكن كيف عرفت بذلك ؟! "سيد رادوفان"

وضع الجريدة على الطاولة وأجاب: وجهك يقول هذا.

في ذلك الوقت سأكون صادقة وأعترف بأنني شعرت بالحنق تجاهه؛ جراء رده البارد ذا؛ فهذا الرجل كان أكثر شخص قادراً على قراءة مشاعري من خلال ملامحي!!

تناول الجريدة مجدداً وفتحها وهو يتم : "أرجينا" طلبتْ مني إخبارك بأنّها لن تتأخر وستعود بعد قليل.

أدرتُ الباب ولازالت عيناي مثبتة نحوه للحظات، قبل أن أستوعب ذلك وأهم بالدخول قائلة: حسناً شكراً لك .

دخلتُ للبيت وخلعتُ معطفي، وقذفته بإهمال على الكنبة المطلة على نافذة الصالون.

حيث وقفتُ للحظات أمارس هوايتي معه، استرق النظر إليه من تلك النافذة، لا أدري لمَ كلما رأيته شعرتُ بأن هنالك شيئاً مفقوداً لا أعرفه ؟!! شعور بالشوق غريب وربما حنين لشيء ما أجهله ؟! أليس من الغريب أن نرتبط مع أشخاص نجهلهم بشعور يشبه الحنين؟!!

أم أن هنالك رابطة تربطني به وأنا أجهلها ؟!

اتجهتُ ناحية المطبخ وشمرتُ عن ساعدي على غير المعتاد وبدأتُ بعجن العجين لإعداد فطائر "البيتا بورك" على الغداء، والتي تحبها كثيراً "أرجينا".

لم تمض نصف ساعة حتى سمعتُ صوت فتح الباب.

فقفزت مسرعة معانقة "أرجينا" ولا يزال بعض العجين عالق في يديّ، وصرخت بصوت مبتهج : أمي "أرجينا" لقد تم قبولي، لقد قُبلت بكلية الحقوق والحمد لله .

سرعان ما طفقت عيناها بدموع طاهرة وقالت: حقاًً!! هل أنتِ جادة ؟؟! الحمد لله، الحمد لله .

ثم عادت لتعانقني وتشد علي بقوة أكبر وتربتُ على ظهري بحنان وظلت هكذا إلى أن اشتمت رائحة تنبعث من الفرن فصرخت قائلة : آمنه، هنالك شيء يحترق؟؟

قفزتُ سريعاً نحو المطبخ وتبعتني "أرجينا" معلقة: راحة "بيتا"! هل احترقت؟

أخرجتها من الفرن ووضعتها جانباً وأنا أتنفس براحة وأجيب: لا، الحمد لله ، لقد كانت على وشك الاحتراق. سأعد شراباً أيضاً إنها مناسبة تستحق أن نحتفل بها.

ربتت على كتفي وهي تهم بالخروج قائلة: سأبدل ملابسي إذن وسآتي لمساعدتك.

وما هي إلا دقائق حتى عادت "أرجينا"؛ لتجدني وقد أعددت كل شيء ووضعته في سله، الحق بأنّي زدتُ في كمية العجين عمداً فسألت مستنكرة: لمَ وضعتها في سلة ؟! هل تريد..

قاطعتها قائلة : لقد طرأ في ذهني بأن نشارك غدائنا مع جارنا "رادوفان " لقد بارك لي فور رؤيتي، ما رأيك بذلك؟!

ابتسمت "أريجنا" برقه وعلقت قائلة: هل تودين أخذ رأي حقاً ؟!لقد أعددتِ كل شيء سلفًا! مع هذا "رادو" يستحق أن تشكريه.

هززت رأسي نافية بحرج بالغ وقلت: كلا أمي "أرجينا" كلا؛ بالطبع كنت سأسألك، لكن أردت فقط أن أشكره لأنه كان قلقاً بشأن ذلك، لقد أخبرتني أنتِ بهذا، وكما قلتِ هو يستحق .

رفعت يدها وشرعت في إصلاح حجابها ثم اقتربت مني وتناولت السلة من يدي وهي تقول: حسناً ..لنذهب، تجهزي وتعالي.

هززتُ رأسي موافقة وقد بدا على وجهي فرح مبالغ فيه؛ لذا شعرتُ بأن "أرجينا" استنكرت بأعماقها كل ذلك الفرح، بدا ذلك واضحاً في نظراتها.

لكن لم أكن لأهتم بذلك أيضاً، فسبب فرحي هذا لأنّي كنتُ أبحث دوماً عن أي حجة لدخول منزل "رادوفان".

وما هي إلا لحظات، حتى عدتُ "لأرجينا" وقد ارتديت حجابي.

ثم خرجنا سوية وعبرنا حديقة منزله وطرقتُ الباب وما هي إلا لحظات، حتى فُتح الباب وظهر من خلفه "رادوفان" وقد بدا من مظهره وكأنه كان متأهباً للخروج لمكان ما، فسألت أرجينا بارتباك : "رادو" هل ستخرج لمكان ما؟ إن لم تمانع نود مشاركتك وجبة غدائنا احتفالا بقبول "آمنه" بالجامعة.

سريعاً ارتسمت على محياه بسمة موافقة فأدار الباب مشيراً لنا بالدخول ورحب بحبور قائلاً : أبداً ..تفضلا ..

تقدمنا سويّا لداخل البيت، اتجهت" أرجينا" سريعاً للمطبخ ووضعت السلة على طاولة الطعام بينما وقفت أنا بالصالة وعيناي كعادتها المتطفلة تطوفان في المكان بفضول كلما دخلت إلى هذا البيت؛ بحثاً عن شيء ما.

فهذا البيت رغم أن صاحبه كما أعرف عنه بأنه مسيحي أرثوذوكسي؛ لم يكن في بيته ما يوحي بذلك مطلقاً، لا تماثيل ولا

لوحات للعذراء أو يوسّع!! ولا أي صليباً واحداً سواء كان قلادة أو موضوعاً على أي رف!!

حتى أنّي لم أره يوماً قد زار الكنيسة أو أنه قال ذلك أثناء حديثه!!

بل أكثر من ذلك لم أره ولا لمرة واحدة ثملاً أو شرب خمراً حتى في عيد رأس السنة!!

بل أنّي لازلتُ أذكر تصرفي الوقح في العام الماضي، يوم عيد رأس السنة إذ تعمدت فتح ثلاجته والنظر فيها بحثاً عن زجاجات خمر، لكنها كانت خاوية !! والنتيجة كانت نظرة قتلتني حتى الأعماق قذفتني بها "أرجينا" عند اكتشافها لي متلبسة بالجريمة.

وبينما عيناي تطوفان في المكان لفتني دفتر لونه بني فاتح وبجانبه قلم كان موضوع على الكنبة.

ذلك الدفتر كنتُ قد رأيته لأكثر من مرة معه، وكثيراً ما أراه يضعه بجانبه أثناء قراءته كتاباً فظننت بأنه ربما يسجل فيه بعض ملاحظته عما يقرأه لكن ذات مرة استأذنت بالدخول فوجدته يكتب شيئاً به ثم أغلقه حال رؤيتي، فبدأت أشعر بأن هذا الدفتر مهماً جداً بالنسبة له وكم ازداد فضولي تجاهه!! لو أني فقط أستطيع أن ألقي بنظرة سريعة عليه فقط.

اتجه "رادوفان "ناحيته والتقطه وكأنه قد قرأ أفكاري تلك ثم وضعه فوق أعلى رف في المكتبة على يمينه، هل كان يبعده عني؟!

مكتبته تلك والتي كانت تزخر بكتب عديدة غالبيتها تاريخية، يعود أكثرها لوالده المتوفى بعد الاستقلال.

ولأول مرة رمقنّي بنظرة غريبة لم أفهم كنهها !!هل أدرك بأني كنتُ أتتبعه بنظراتي؟!

استدرتُ بارتباك واضح وسبقته للمطبخ، فتبعني.

كانت " أرجينا" قد وزعت البيتا على الأطباق وملئت ثلاث أكواب بعصير "سمرياكا".

وما أن رأتنا حتى قالت مستفهمة: ما الذي كنتما تفعلانه لقد تأخرتما ؟!

حرك الكرسي ثم جلس وهو يجيب: لا شيء، كنتُ أرتب بعض الفوضى بالصالة.

بينما جلستُ أنا بصمت يكسوني الخجل التام.

تناولت "أرجينا" من الفطيرة قليلاً وعلقت: لقد كادت أن تحرقها، ولكن لا بأس إنها لذيذة فعلاً.

رددتُ باستياء وأنا أقرب أحد القطع من فمي: لماذا تفضحينني أمي ؟! ففي النهاية لم تحترق، والمهم بأنها تصلح لأن نحتفل بها.

أيدني " رادوفان " بعد أن تناول قطعة منها وقال: لا بأس، إنها لذيذة بالفعل.

ثم ارتشف من العصير ووضع الكوب جانباً وسأل دون أن ينظر نحوي: متى سيبدأ دوامك بالجامعة ؟!

أجبته سريعاً: بعد شهرين.

صمت قليلاً، ثم قرب الكأس من فمه وعلق مازحاً: عليك الاستيقاظ باكراً إذن؛ لتصلي للترام في وقته بدل أن تركضي كما اليوم.

رغم أنّي معتادة على هذا الانتقاد من قبل من يعرفوني جيداً؛ فأنا بالفعل كسولة، إلا أنّي شعرتُ فور سماعي منه ذلك بالخجل، فخفضت رأسي وأجبت محاولة الدفاع عن كبريائي: لقد وصلتُ في النهاية قبل انطلاقه وهذا هو المهم.

لكني لم أرفع رأسي قبل أن أتلقى ضربة مباغتة بأصابع "أرجينا" على رأسي وقالت معاتبة: هذه الفتاة لا تنضبط بموعد مطلقاً، ورغم أني وضعت المنبه بجانب رأسها ولكنها حقاً صاخبة .

ضحك " رادوفان " برقة بينما كنتُ أمسح رأسي وأنظر إليه مستنكرة وإذ به يدهشني بتعليقه: إنها تشبهك في هذا "أرجينا ".

لكن "أرجينا" اعترضت بقولها: مـــــــــــــاذا؟! أنا لم أتأخر عن عملي يوماً!

ابتسم "رادوفان" حينها بعمق، وكأن ذلك البياض الذي كنتُ أراه في عينيه وأنا طفلة قد غشيه فجأة، ظل للحظات صامتاً، ثم علت شفتيه بسمة جميلة وقال: من الذي كان يؤخرني عن المدرسة كل صباح، أليس أنتِ " أرجينا " ؟!

ضحكت " أرجينا " بصوت عالٍ وازدادت ضحكاتها أكثر وأكثر وكانت تضع يدها على فمها حيناً وحيناً تزيحها وكأنها تتذكر تلك الأيام وأخيراً هدأت وعلقت: لا تذكر هذا أمامها الآن "رادو"، ستتخذه عذراً لتقاعسها الدائم.

ثم وقفت بعد أن أنهت طعامها وحملت الأطباق معها؛ لتغسلها، لكنني نهضتُ سريعاً وأخذتها منها لأقوم أنا بذلك، فعادت هي لتجلس وتتحدث مع " رادوفان".

كنتُ استمع لحديثهما باهتمام.

"رادوفان" هذا، لا يضحك ولا يتحدث بارتياح دون تكلف وحرج كما يفعل مع "أرجينا" جارته وصديقته منذ الطفولة وربما حبيبته فقد كنتُ أظن ذلك وإلا فما الذي يمنعه من الارتباط بها، أنا حتى أشك في كونه أرثوذكسياً!! لكن الأيام أثبتت لي ما لم أتوقعه.

حركت رأسي قليلاً ناحيتهما، كان ينظر إلى "أرجينا " مبتسماً بملأ فيه يستمع لحديثها باهتمام تام.

"رادوفان " و"أرجينا" أي نوع من العلاقة بينهما؟؟ أي علاقة تلك التي تجعل "أرجينا " تصفه بالجار والصديق والمخلص رغم أنه صربي ؟! هل البشر ينسون بكل هذه البساطة؟! رغم أنّي الوحيدة التي لا يحق لي الحديث عن النسيان.

هو الرجل الصامت دوماً والمبتسم أيضاً على الدوام، ذا العينين الباردتين، لمَ كل صمته يتبدد بحضرة " أرجينا" وتُبث الحياة في عينيه فيضحك حد أذنيه ؟! هل نشعر نحن بمشاعر خاصة لمن شاركنا يوماً ذكرياتنا ونحن أطفالاً؟!

هذا الأسئلة كثيراً ما كانت توقعني بالحيرة وتدفعني للفضول أكثر وأكثر؛ لنبش ذلك الماضي، طفولتي أنا والتي أشعر بأنه شاركني جزءًا منها ولكنني كثيراً ما كنتُ أشعر بأن "أرجينا " و " رادوفان" يسعيان لعدم تذكيري وكأنهما قد تواطئا على ذلك!!

-"آمنه" هل انتهيت ؟!

أشحت وجهي سريعاً بارتباك بعد سماعي لسؤال "أريجنا" وأجبتها: تقريباً، بقي طبق واحد سأغسله الآن.

-سريعاً إذن.

قالتها " أرجينا " فسأل " رادوفان " مستنكراً : لمَ العجلة ؟! سأعدُ بعض القهوة.

وقفت " أرجينا" وهي تقول معتذرة: في وقت آخر..

ثم أشارت إلي بالمغادرة وأتبعت وهي تبتسم قائلة: إنه يوم الأحد من أول الشهر، سأذهب لزيارتهم اليوم.

ابتسم "رادوفان" ولكن بسمته كانت مشوبة بحزن واضح ثم تابع شرب ما بقي من العصير في صمت.

بعد ذلك خرجنا سويّا ثم اتجهنا في طريقنا نحو المقابر، في البوسنة تجد الكثير من القبور التي ترتفع فوقها الشواهد والتي تشير غالبيتها إلى تاريخ الحرب.

اتجهنا أولاً للقبر الذي حوا جسد زوج " أرجينا" والذي كان قد توفي قبل تسع سنوات وتركها أرملة وهي ابنة الخامسة والعشرين ربيعاً.

ثم اتجهنا بعد ذلك إلى قبر والدتها والتي كانت ضحية للحرب أما والدها فمات قبل ذلك. وأخيراً عرجنا على قبر " فاطمة" أو

" فاتيم" كما كان يناديها الجميع، شقيقتي التي تكبرني بخمس عشرة عاماً ولا أذكر شيئاً من ملامحها أو حتى أي ذكرى من أيامي معها، رغم أنّي عشتُ بجوارها عشر سنوات قبل أن تفرقنا الحرب.

وضعتُ الأزهار على قبرها وعيناي تمتد بامتداد الشواهد أمامي.

تضيق عيناي شيئاً فشيئاً، عل هذه الشواهد على جرم تلك الحرب تهبني ولو خيطاً دقيقاً أستطيع من خلاله تتبع ذاكرتي.

لكنها كانت بيضاء من كل شيء، كانت أقرب للعدم، أدعى للفناء!

وللحظة شعرتُ بشيء قُذف من بقعة العدم؛ فاختال حضوره الشبحي لوجود عشته يوماً، أمسك بكفي ومسح على رأسي لكن وجهه كان قطعة من بياض لم تحوي أي ملامح، عدا ابتسامة مشرقة انبرت من شفتيه وبجواره وقفت فتاة كانت هي الأخرى بلا ملامح، لكنها كانت تنظر نحوي وتضحك بملأ فيها.

ربتت " أرجينا" على كتفي فجأة؛ فجعلتني أفيق من سكرة ذلك الحضور الذي شعرت به للتو، حضور أشخاص من ذاكرتي المطوية، هكذا وعلى حين غرة!

القلق كان جلياً في وجهها وهي تنظر لوجهي الذي كان باهتاً وهي تسأل: ماذا؟ فيم تفكرين "آمنه" ؟؟!!

نظرت إليها ولازلتُ أشعر بحضور تلك البسمة وتلك الكف الدافئة التي أمسكت بكتفي، فأجبتها بصوت يرتجف: تلك الابتسامة.. أعرفها جيداً.

رفعت " أرجينا " أحدى حاجبيها وتلفتت بريبة ناظرة حولها ثم قالت باستغراب: ما الذي تقولينه "آمنه" من تقصدين بحديثك؟!

حينها نفضت رأسي بقوة وتبدد معه ذاك الحضور لتلك الذكرى المتطفلة، فعلقت بارتباك: لا شيء.. لا شيء مطلقاً ..هل نذهب ؟

أومأت برأسها وما إن استدارت قليلاً حتى فوجئت بسؤالي: أمي، هل كان المنزل الذي أعيش فيه قبل الحرب هنا ؟! أريد أن أراه.

مشت عدة خطوات دون أن تجيبني ثم قالت دون اهتمام أو أنها تعمدت إيصال رسالة لي مفادها بأن أصمت: كلا، لقد كنتِ تعيشين في "برتشكو".

لكنّي ازددت إصراراً وقلتُ موضحة: أعني الذي كان هنا قبل أن ننتقل لبرتشكو؟!

تابعت خطواتها دون اكتراث وهي تجيبني: لا أعرف مكانه بالضبط؛ لقد هاجر كُثر، ولم يعودوا، وصودرت بعض المنازل. ولاشك بأن أناس يقطنون به الآن، أنتِ تتحدثين عن شيء قبل خمس عشرة سنة !!

نظرت لشاهد قبر أختي ثم تقدمتُ بضع خطوات وتوقفت فجأة وسألت: هنالك سؤال يؤرقني، إن كانت أختي ضحية إبادة " سربرنيتشا "* فلماذا نقل جثمانها لهنا ولم تدفن مع والدتي هناك؟!

---

*:إبادة سربرنيتشا أو سربرنيتسا: شهدتها البوسنة والهرسك في يوليو ١٩٩٥ وراح ضحيتها حوالي ٨ آلاف شخص من المسلمين البوشناق أغلبهم من الرجال والصبيان في مدينة سربرنيتسا وقد ارتكب المجزرة وحدات من الجيش الصربي تحت قيادة الجنرال راتكو ملاديتش ووقعت الإبادة رغم أن المدينة كانت محمية للولايات المتحدة !! وتحت حماية القوات الهولندية التي كانت تراقب المدينة خلال عمليات الإبادة دون أن تدافع عن المدنيين!

توقفت " أرجينا" وصمتت للحظات قبل أن تلتفت إلي وتصطنع ابتسامة باردة على وجهها وتقول: "آمنه "بمناسبة قبولك، كُنت قد ادخرت مالاً لأشتري لك ثوباً لتلبسيه في أول يوم لك في الجامعة، ما رأيك هل نتجه للسوق ؟!

شعرتُ بخيبة تملكتني فأنا أعرف "أرجينا" جيداً ، هي من النوع الذي يُحيل المواضيع سريعاً إن لم يعجبها، هي أيضاً إن أرادت أن لا تستمع لشيء، يُحال أن تسمعه حتى لو حركت رأسها باهتمام، خفضتُ رأسي وتمتمت متذمرة: لا ترغبي بالرد فقط.

لا أعلم إن كانت تلك الذكرى تؤرقك أنتِ "أرجينا" أيضاً أم أنها ستحدث لي جُرحاً أكبر؛ ألهذا أراك تحرصين على عدم ذكر شيء لي عنها!

ثم رفعتُ رأسي وابتسمتُ رغم الحزن الذي تملكني وأتبعت: على الأرجح أنه للسبب الثاني.

اقتربت مني وربتت على رأسي بلطف وكأنها تواسيني أو تهبني مهدئاً كعادتها وقالت: لا تشغلي نفسك بهذا يا آمنه، بماذا يفيد نبش الماضي، لا شيء على الإطلاق !!

أدرتُ بعيني يساراً فأنا لم أعد أقتنع بتلك الفكرة مطلقاً، ويبدو بأنها شعرت بذلك فضربت على كتفي بخفه وقالت: سأجيبك إن كان هذا سيريحك .."آمنه".

رفعتُ عينيّ نحوها متطلعة بلهفة فتابعت قائلة: أحدهم طلب نقل جثمانها إلى هنا، هل هذا يريحك الآن ويشبع فضولك؟

ثم استدارت مغادرة بينما وقفتُ أتبعها بنظراتي ثم حركت رأسي قليلاً يساراً نحو الشاهد وصورة تلك الابتسامة والكف التي كانت تربت على كتفي وتلك المرأة الواقفة والتي تضحك بملأ فيها، تتشكل أمام عيني مجدداً.

عدتُ لأنظر أمامي متتبعة خطوات " أرجينا " قبل أن أنطق قائلة: وهل " أحدهم" هذا هو نفسه جارنا " رادوفان " ؟!

التفتت إلي بملامح لا تخفي دهشتها وارتباكها، ظلت هكذا للحظات قبل أن تغمض عينيها وتزفر الهواء بقوة ثم تابعت طريقها بصمت دون أن تجيب!

الفصل الثاني : المتهم!!

بعض الأحداث تأتي فجأة على حين غرة من السهو؛ لتهدم معها كل الألغاز التي قذفتنا وسط فوضى من النسيان.

"فاتيم "، شقيقتي من أمي ومع أن " أرجينا" تقول بأني قد عشت هنا في "سرايفو" ما يقارب الخمسة أعوام، إلا أن ذاكرتي عنها تكاد تكون معدومة.

لمَ أشعر بأن تلك المرأة التي أراها تضحك، هي أختي "فاتيم" وذلك الرجل الذي يبتسم هو.. !!

تنفست بعمق ثم زفرت الهواء بقوة، لقد أصبحتُ أشعر باضطراب من بعد ذلك اليوم وذلك الحضور الغريب الذي شعرتُ به.

قمتُ من على سريري معتدلة وأخرجتُ من درج المكتبة سواراً مصنوع من خيوط الكتان الزرقاء هذا السوار تحيكه النساء البوسنيات بكل سهولة عدا " أرجينا " فهي لم تحك يوماً أي شيء لأنها تكره الحياكة كثيراً.

تأملت السوار وأخذت أقلبه بين يدي، أتفحصه بعمق وشغف.

كان السوار يبدو مهترئًا كما انحلت منه العديد من الخيوط ولكنه ظل مع هذا محافظاً على وجوده وكأنه شاهداً أخير لما حدث يومها، حيث قيل لي بأن فاتيم كانت تلبس هذا السوار يوم وفاتها كما أنها لم تكن لتخلعه مطلقاً، والحق بأني وجدتُ بقعة من أثر الدماء ربما لم تنتبه لها "أرجينا" حينما غسلته، جعلتني أقف أمامها كثيراً فهذه الدماء لا شك بأنها تعود لصاحبته.

لا أعلم لمَ تملكتني رغبة فوضعته عند أنفي وتنفسته وتنفسته وتنفسته ، ولكني مع هذا لم أشعر بشيء!

أبعدته قليلاً عن ناظري، ورحت أتساءل:

ما الجميل في هذا السوار، والذي يجعل شقيقتي دوماً تلبسه !!

هل كان هدية من شخص تعزه؟! هل أمي حاكته لها؟!

فرّجت أصابعي وسط شعري ثم حككته بضجر أتبعتها بتنهيده أطلقتها بسأم.

ثم أعدته إلى الدرج، رتبتُ شعري قليلاً أمام المرأة، ثم خرجتُ من غرفتي وما إن وقفت في الصالة حتى أطلت "أرجينا" من نافذة المطبخ علي وقالت: أيتها الكسولة، أنتِ تنامين كثيراً.

حككت شعري بإهمال وأنا أجيبها: لا شيء لدي لأعمله مطلقاً، لا أصدق بأني سأظل شهرين على هذا المنوال، هذا ممل.

خلعت " أرجينا" مريلتها وخرجت سريعاً من المطبخ وهي تقول : اسألي الحاج حسن وزوجته بهيرة أظنهما يحتاجان عاملاً يساعدهما، تحركي، فالعمل لن يأتي راكضاً إليك، دعي عنك الكسل.

ثم وقفتْ أمام المرأة الصغيرة المعلقة على أحد جدران الصالة ولفت حجابها سريعاً وهي تقول: اسمعي.. خذي هذه الموسوعة.

ثم أشارت إليها على الطاولة وأتعبت: وأعيدها للمكتبة. فطورك جاهز في المطبخ.

ثم أسرعت نحو الباب على عجل، أوقفتها مستفهمة: لحظة أية مكتبة ؟!

بتأفف أجابتني قبل أن تغلق الباب خلفها: وهل هذا سؤال؟! المكتبة العامة التي يعمل بها "رادو".

رغم الثقل الذي شعرت به كوني سأقوم بإعادتها إلا أن هذا تبدد حينما سمعت باسم "رادوفان" ما المانع أن أكتشف كل عوالمه وما يحيط به؟!

ألقيت بنظرة سريعة على الموسوعة، قلبت صفحاتها بتعجب!

فأمي "أرجينا" غريبة حقاً!! موسوعة طبية، لمَ تهتم بهذا ؟! ربما لأنها تمنت أن تكون طبيبة ذات يوم، لكن الظروف حالت بينها وبين حلمها.

مددتُ ذراعي لأعلى ثم تثاءبت بكسل واتجهت نحو المطبخ، تناولت إفطاري، ثم أعددت لي كوباً من القهوة علها تنفض بقايا النوم من عيني.

وأخيراً بدلت ملابسي ولففت حجابي أمام المرآة ثم استدرت ناظرة نحو ذلك الدرج الذي يحوي بداخله السوار، شعرت بحنين غريب يدفعني لإخراجه والنظر إليه مرة أخرى.

سرعان ما أخرجته وأطلتُ النظر فيه للحظات، ثم لا أعلم لماذا فعلت ذلك ولكني أدخلته في النهاية بيدي اليسرى.

الحقيقة لم أهتم يوماً بارتداء أية زينة في يدي كما أنه لا يبدو عصري مطلقاً !! ولكن ربما فعلتُ ذلك ظناً مني بأن لو كانت "فاتيم" معي سأستطيع التذكر شيئاً فشيئاً، فالإنسان الذي يتخلى عن ذكرياته، يتخلى عن وجوده أيضاً.

رفعتُ يدي وثبتها على رأسي ونظرت للسوار في المرآة، فابتسمت.

ثم خرجتُ مسرعة، التقطتُ الموسوعة ثم عبرت الحديقة، وألقيت نظرة على حديقة منزل "رادوفان " حيث يجلس دوماً، وقفتُ للحظة كما اعتدت أن أفعل كل يوم ثم ابتسمت، وعبرت الباب الخارجي.

اتجهتُ نحو السوق عابرة العديد من المحلات، حتى وصلت لمحل الفاكهة حيث يعمل الحاج "حسن وعمه بهيرة".

أشرتُ بيدي إليهما قائلة :صباح الخير حاج "حسن" وعمه "بهيرة".

فأشار إلي الحاج بالاقتراب وما إن دنوت منه حتى ناولني فاكهة وهو يقول: تناوليها إنها لذيذة يا ابنتي.

ابتسمت بود له والتقمتها بفمي سريعاً وأنا أراقب" بهيرة" وهي تصف الفاكهة فحدثت نفسي "لا يبدو بأن العمل هنا سيكون ممتعاً، كما وأنه شاق " لذا قررت عدم سؤالهما.

التفتتْ ناحيتي "بهيرة" وقالت بابتهاج : "آمنه " ؟! مبارك قبولك بالجامعة يا ابنتي، في أي كلية قُبلتِ ؟

أجبتها : حقوق .

كررت الكلمة وهي تدقق النظر إلي قائلة : هل سأرى إذن اليوم الذي ستقفين فيه تدينين "كراديتش"* على جرائمه ؟!

فوجئت من تعليقها لدرجة جعلتني أشعر بأن لساني قد أنعقد!

ما الذي جعلها تفكر هكذا؟! وكيف طرأت هذه الفكرة على ذهنها؟! ابتسمت بحرج وأنا أتراجع بخطواتي للوراء قليلاً وعلقت: أبداً.. لا أظن بأن هذا سيحدث يا عمه "بهيرة".

بجدية استنكرت قائلة: ولمَ تقولين ذلك ؟! ألا نملك الحق بمعاقبة المجرمين بأنفسنا؟!.

لقد أذهلني إيمانها الشديد واقتناعها الذي لمحته على وجهها، وتفرسها الشديد في ملامحي فأجبتها بتلعثم: أنا أطمح أن أكون محامية لا مدعية عامة.

ثم اتبعت لأنقذ نفسي ليس إلا: وهذا إن كان "كراديتش" لا يزال حياً أصلاً ، فستقاضيه المحكمة الدولية أكيد.

حينها تدخل الحاج حسن وقال: يا الله كم سنة مضت الآن؟! إن كان "لطفي" لم يمت لكان في مثل عمرك الآن.

---

*رادوفان كراديتش: هذا الاسم لا يمكن لأي بوسني أن ينساه فهو المسئول المباشر عن المذابح التي وقعت على أراضي البوسنة والهرسك وارتكاب جرائم ضد الإنسانية والإبادة الجماعية لأهل "سربرنيتشا" وتهجير الآلاف من الكروات وهو سياسي صربي وشاعر وطبيب نفسي ظل فاراً من وجه العدالة بعد تنحيه من مناصبه الحكومية طوال ١٣ عاما حتى تم اعتقاله في ٢١ يوليو ٢٠٠٨ وفي ٢٤ آذار ٢٠١٦ تم الحكم عليه في جلسة النطق بالحكم في محكمة الجنايات الدولية بالسجن لمدة ٤٠ عاماً.

بتهكم نظرت إليه "بهيرة" وعلقت ساخرة: هذا الحاج يبدو بأنه أصيب بالخرف حقاً، لطفي سيكون أكبر من " أرجينا" بعامين يا حاج.

ثم صفقت بيديها وهي تستدير لتخفي الحسرة التي تملكتها وربما الشوق وتمتمت: رحمه الله.. رحمه الله .

لم أجد أي كلمة أستطيع أن أعلق بها لمواساتها فأشرت بيدي للحاج لأغادر ثم أكملت طريقي حتى وصلتُ أخيراً للمكتبة، وما إن صعدتُ درجات السلم وعبرتُ البوابة الكبيرة، حتى وجدت نفسي واقفة أتلفت حولي بحيرة، قبل أن اصطدم بإحدى الموظفات فسألتها بحرج: عذراً أريد أن أعيد هذه الموسوعة؟!

أشارت إلي بإصبعها نحو مجموعة من المكاتب التي تقع خلف نافذة زجاجية دون أن تنطق بحرف، ومع هذا ابتسمت شاكرة لها ثم اتجهت سريعاً إلى هناك وما إن وضعت الموسوعة على الطاولة وقلت: من فضلك أريد إعادتها.

ثم أخرجت بطاقة "أرجينا" من حقيبتي بيدي اليمنى وما إن قدمتها حتى أطل من خلف الزجاج "رادوفان" بعينين شاخصتين تحدقان بدهشة في السوار على معصمي الأيسر!

أربكتني نظراته و لم أجد تفسيراً لها وشعرت معها بالخجل، فنفضت يدي سريعاً عل السوار يختبئ خلف كُم قميصي ، ثم نظرت إليه.

رفع عينيه ببطء نحوي، كان فيهما هدير من طوفان يفيض بالألم ثم سرعان ما أشاح بوجهه عني وهو يحمل الكتاب ويقول: بلغي لها تحياتي.

ثم تركني واقفة تلطمني أمواج من الحيرة، وتعصف بقلبي رياح من الفوضى.

ما الذي شد انتباهه في هذا السوار المهترئ، ولمَ ارتسمت تلك النظرة المتفاجئة على عينيه ثم غمرها الحزن سريعاً ؟!

وأخيراً خرجتُ من المكتبة على غير هدى، أتخبط في سيري، مشيت كثيراً ووقفت كثيراً ثم جلست على أحد الكراسي في الطريق لبرهة.

وأخيراً عرجتُ على محل لبيع الزهور، اخترت زهوراً بيضاء ووجدت نفسي أتجه نحو المقبرة حيث قبر " فاتيم ". ولا أعلم بالضبط لمَ أشعر بأنها تحب اللون الأبيض في الورد، أو أن الأبيض يشبهها.

لا أعلم ما الذي يدفعني لذلك وأنا التي لم أفعل ذلك قبلاً دون "أرجينا" بل كنتُ أشعر بثقل في أول أحد من كل شهر.

وما إن اقتربت من شاهد قبر أختي حتى تجمدت قدماي.

حيث كان هنالك رجلاً قد سبقني إليها، وضع على قبرها زهوراً وردية اللون ثم جلس أمام قبرها يبكي في صمت!

بل أن صوت بكائه كان يعلو شيئاً فشيئاً، حتى احتال إلى نحيب موجع!!

شعرت بيداي ترتجفان أمام هذا المشهد، فهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها "رادوفان" يبكي على هذا النحو ومن أجل "فاتيم"، لم يعد السؤال الآن عن موقفه من السوار يحتاج لإجابة!!

ففي الأوقات التي نعانق بها الفوضى ونبدأ بالبحث عن أي شيء نستجدي منه الإجابة، تتدفق فجأة بعض الأحداث أمامنا هادمة بذلك كل الألغاز التي قذفت بنا وسط عتمة من النسيان.

ما من شك بأن هذا السوار قد أيقظ في أعماقه ذكرى تؤرقه !!

انتفضتُ بربكة ووقعت الأزهار من يدي على الأرض ففرت هاربة دون أن أنظر خلفي.

لمَ هربت هكذا؟؟ هل هو خوفي من إحراج "رادو"؟! أم هو خوفي من سماع شيء أخافه؟! لا أدري أيهما كان أقوى ولكنّي ظللت أركض دون هوادة، لا أدري إلى أين اتجه؟!

تقتحم مخيلتي صور ذلك الرجل الذي يربت على كتفي ويبتسم وبجواره امرأة تضحك، أشاهد فمه يطبق ويفتح وكأنه يقول شيئاً ولكني لازلت لا أدركه.

وأخيراً جلستُ على كرسي بجانب الطريق، أرخيت رأسي، حدقت في السماء بإمعان.

وذات المشهد، الرجل الباكي على قبر "فاتيم" يقتحم خيالي، يزيح عني السحاب الأبيض والسماء الزرقاء، ليبقى هو معلقاً بينهما.

أغمضتُ عينيّ علهما تغوران بين أعماق ذكريات أخرى، ثم فتحتهما علهما تلتقطان شيئاً ينعشهما، لكن لا شيء.

نفختُ الهواء من فمي بتذمر وعلقت في قلبي " بلا فائدة ".

عدلتُ رأسي وعيناي تطيشان في العابرين أمامي.

"رادوفان" هذا..

كل ذكرياتي عنه تبدأ حينما كنتُ في العاشرة بعد انتهاء الحرب ورفع الحصار عن "سراييفو " حينما وجدتُ نفسي فجأة أسكن منزل "أرجينا" التي لم أكن أعرفها قبلاً.

حينها ظهر "رادوفان" وأعطاني عود حلوى، وأخرج من جيبه عوداً أخر، فتح قرطاسه وقربه من فمه لكنه لم يلعقه!! وظل يفعل ذلك لأيام كلما قابلني حتى ألقي القبض عليه ودخل السجن وبعد سبع سنوات قضاها في السجن، خرج ليعود إلى بيته، ورغم أنه استقبل "أرجينا" بحفاوة، إلا أن كل تلك الحفاوة تبددت إلى جمود حال رؤيته لي ؟!!

رفعتُ يدي اليسرى ناظرة للسوار.

ما الذي جعله يتجمد هكذا حال رؤيته لي ذلك اليوم ؟! ارتباكه ثم إشاحته بوجهه عني والتي دأب عليها منذ تلك اللحظة ؟؟! هل لهذا علاقة "بفاتيم" يا ترى؟!

ما رأيته اليوم يؤكد بلا شك بأن ثمة علاقة تربطه بفاتيم، حتماً هو لا يعرفها وحسب كما تقول "أرجينا"!!

بعد ذلك، تابعت سيري في شوارع "الباشجارشيا" واشتريت قهوة وبعض الحلوى وأخذت أنتقل من مكان لآخر حتى غربت الشمس.

وحين عودتي للمنزل وما إن عبرت الحديقة حتى ألقيت نظرة على حديقة "رادوفان " لم يكن يجلس فيها، لا أدري لمَ شعرت برغبة في رؤيته حينها، وتصورت بأنه لازال يبكي على قبرها.

وما إن وضعت يدي على مقبض الباب، حتى تنفست بعمق وقد عزمت على أن أخبر "أرجينا" بما رأيته اليوم ومحاصرتها لأعرف كل شيء منها، ليس مهماً أن أتذكره، المهم الآن أن أعرف ولا أظل هكذا خاوية من كل شيء.

وما إن فتحتُ الباب وأصبحتُ داخل الصالة وهممتُ بخلع حجابي حتى وصل لأذني صوت ضحكات تنبعث من المطبخ.

تراجعتُ قليلاً للوراء وإذ بي أرى من نافذة المطبخ وجه "رادوفان " وهو يضحك برقة كعادته أما "أرجينا" فقد كانت واقفة ولا يظهر رأسها.

تنبه "رادوفان" لي والتقت عيناه بعينيّ فأشحت وجهي سريعاً بارتباك، وسرعان ما سمعت صوت " أرجينا" تنادي علي : "آمنه" ..هل عدتِ لقد تأخرت ؟ لقد حضرت العشاء، كنّا بانتظارك؟

حركتُ ساقيّ بتردد وما إن دخلت وبدوت أمامهما ببسمة مصطنعة حتى علقت " أرجينا" قائلة: تبدين مرهقة؟ هل وجدتِ عملاً لك ؟!

اقتربت وتناولت الأطباق من يدها ووضعتها على الطاولة وأجبتها :كلا .. لم أجد.

توقفت " أرجينا " عن وضع الطبق على الطاولة وكأنها لم تتوقع هذه الإجابة مني واستفهمت باستغراب: ماذا ألم تسألي الحاج حسن ؟ لقد أخبرني البارحة بأنه يحتاج لعامل!!

سحبت الطبق من يدها ووضعته وأجبت: الحقيقة لم أسأله، العمل هنالك شاق.

نفخت " أرجينا" الهواء من فمهما بضجر وهي تنظر ناحية "رادوفان" وتعلق قائلة: هذه الطفلة سيصيبني كسلها بالجنون، هل أفسدتها بالتدليل ؟

ثم جلست وأشارت إلينا بالشروع بالأكل، أمسك "رادوفان" الملعقة ثم نظر إلي وأنا أهم بالجلوس دُهشت لذلك لكنه سرعان ما خفض رأسه وقال: وكيف ستعملين بعد ذلك في المحاماة؟! إنها تتطلب جهداً أيضاً.

لم أجبه أو أظهر أي تعليق، فذهني كان مشغولاً أكثر بما رأيته اليوم، تناولت الملعقة في صمت، ولمحت طرفَ السوار ظاهراً من كم قميصي، فأدخلته سريعاً تحته وأنا ألقي بنظرة ناحيته، لكنه كان يأكل طعامه ولم ينتبه.

عدت لأدقق النظر في قسمات وجهه وهو يأكل الطعام دون أن يَلحظني.

هل عرف بأني رأيته اليوم في المقبرة ؟! لا أظن ذلك ؟! فهو لم ينتبه لوجودي أصلاً؟! هل اسأله مباشرة عن السوار؟! ولماذا فوجئ هكذا فور رؤيته له؟!

يبدو أن " أرجينا" قد انتبهت على سرحاني ذاك فقالت لتلفت انتباهي:" آمنه " لدي غداً يوم إجازة، سنخرج صباحاً سويّا ونبحث لك عن عمل، رمضان على الأبواب كما تعلمين، وبعدها ستداومين في الكلية، يجب أن نجد لك عملاً فوراً.

تلعثمتُ وبدوت مرتبكة وأنا أجيب: حاضر أمي.

حينها رفع "رادوفان" بصره نحو أرجينا وقال: لقد تركت لدينا موظفة عملها اليوم وأصبح مكانها شاغراً في المكتبة.

-حقـــــــــــــاً ؟!

بحماس قالتها " أرجينا" وهي تضرب على الطاولة بكفها ثم التفتت نحوي وسألت: ما رأيك؟

تنقلت بنظري بينهما ثم أجبت بتردد: لا أعرف.

بخيبة علقت " أرجينا": ما الذي لا تعرفينه ؟ ستذهبين غداً .

وضع "رادوفان" الملعقة جانباً وقال وهو يوجه نظراته نحو "أرجينا": لا تضغطي عليها، دعيها تقرر ذلك بنفسها، عموماً العمل ليس شاقاً هناك وسيكون في الفترة الصباحية فقط، سيتوجب عليها أن تقدم غداً طلباً للوظيفة في الساعة الثامنة، إن أرادت ذلك.

عادت "أرجينا" لتلتفت نحوي وكأنها تستحثني، فأجبت وأنا أقف حاملة الطبق: لا مفـــــر من ذلك، أمي " أرجينا" إن أصرت على شيء، لا بد من تنفيذه، حسناً سأذهب غداً.

ابتسمت "أرجينا" بارتياح وهي تعلق قائلة: أليس رصف الكتب أفضل من رصف الفاكهة! أنا أرى بأنها فرصة جيدة لك، سيكون أمامك كومة من الكتب التي يمكنك تصفحها وقراءتها..

أومأتُ موافقة وقلت وأنا أتجه نحو المغسلة: سأعد الشاي.

رحبت " أرجينا " بقولها: من فضلك.

ثم انخرطت بحديثها مع " رادوفان" عن عملها بينما شرعت في اعداد الشاي، وما إن انتهيت من تحضيره ووزعت الأكواب وجلست، وشربت القليل منه، حتى قاطعت حديثهما قائلة: أنا سعيدة كونكما الآن تجلسان معي وتتحدثان براحة بال وسعادة.

التفتا إلي باستغراب فتابعت: ومع هذا، أشعر أن كليكما متواطئان في إخفاء شيء عني.

باستنكار قاطعتني "أرجينا" قائلة: ما الذي تتحدثين عنه " آمنه" ما الذي تعتقدين بأننا نُخفيه عنك؟!

أجبت بحدة: مكان البيت الذي عشت فيه هنا!! لماذا قبر أختي هنا وليس في "سربرنيتشا" مع أمي؟؟! الرجل الذي ساعدني من مجزرة "سربرنيتشا" وساعدني في عبور نفق الأمل* والدخول إلى "سراييفو" ..أنتما تعرفان ؟!

---

*نفق الأمل : بني هذا النفق في عام ١٩٩٣ أثناء حصار مدينة سراييفو وكان ممرها الوحيد إلى العالم الخارجي أثناء الحصار الذي استمر حتى نهاية شهر شباط عام ١٩٩٦ يقع مدخل النفق داخل منزل في طرف مدرج المطار وقد أصبح متحفاً اليوم .

تبادلا النظرات سويّا ثم علقت " أرجينا" بقولها : " آمنه " أنتِ تتحدثين عن شيء مضى عليه أكثر من تسع سنوات ؟! أنا حقاً لا أعرف مكان البيت، ثم ما قام به الرجل هو عمل إنساني في النهاية، لمَ تريدين كشف أغوار ماضٍ يؤلمنا جميعاً ؟!

صمتتْ قليلاً وكأنها تستعيد هدوئها ثم أتبعت: سنتحدث عن ذلك يا "آمنه" لاحقاً؛ "فرادو" لا يحب الحديث عن الحرب.

لكن "رادوفان" كان قد نظر إلي باهتمام وسأل: ما الذي تودين معرفته من الرجل هذا؟!

بسرعة أجبته وأنا أنظر إلى عينيه بقوة: أريد أن أضربه.

رفع حاجبيه مندهشاً وكذلك " أرجينا" ومع ذلك تابعت بكل تبجح: أريد أن أضربه، لأنه وهبني ذاكرة من بياض، في كل يوم أرى وسطها نقاطاً سوداء معتمة وغير واضحة، وأشعر بأن علي ترتيبها ورصفها لتتضح، وهذا يرهقني كثيراً.. يرهقني كثيراً .. لو تركني أموت أما كان أفضل؟!

بدا صوتي يخفت شيئاً فشيئاً وثمة ما يُغرق عينيّ ويزعجني ويُعتم رؤيتي أمام صمت منهما تملأه الدهشة والاستغراب.

تابعت بعناء: بت أرى كثيراً صورة لرجل يُربت على كتفي ويبتسم ويتحدث معي ولكني لا أفهم ما الذي يقوله وبجواره امرأة تضحك بسعادة وهي تنظر ناحيتي، تخيلي أن تغزوكِ ذكريات ناقصة مشوشة كل يوم لا تجدي لها تفسيراً !! تُحدثُ داخلك ارتباكا وإرهاقاً ومشاعر مضطربة..

أنتما لا تتحدثان عن الحرب لأنكما تريدان النسيان؛ لأن ذكرياتها ترهقكما، أما أنا.. أما أنـــــا.. فعدم تذكري لها هو ما يرهقني أكثر، عدم معرفتي من أنا ومن أكون وكيف عشت عشر سنوات قبل الحرب وأين؟ وما الذي أصابني بالمجزرة وجعلني أنسى كل شيء؟! هذا يرهقني.. يقتلني ..أنا لا أعرف سوى أن اسم أمي "سارّه" وأختي من أمي "فاتيم" ووالدي "محمد" وربتني أمي

" أرجينا" صديقة "فاتيم".

ثم وقفتُ وأنا أهز الطاولة من تحتي ووجهت أنظاري ناحية

"أرجينا" وقلت بحدة: أنتِ لا تفهمينني "أرجينا" لا تفهمين.

لكنها رغم كل ما قلته أشاحت بوجهها عني وعلقت ببرود ممزوج بالاستياء: أنتِ ترهقينني بفعلكِ هذا، أدخلي غرفتك. سنتحدث غداً.

كززت على أسناني بقهر وأخرجت تنهيدة مستاءة، ثم خرجت سريعاً من المطبخ متجهة لغرفتي، أغلقت الباب خلفي وظللت ورائه، أبكي بصمت، يصلني صوت حديثهما.

فبعد طول صمت منهما سمعت "أرجينا" تقول شاكية: لا أعلم ما الذي أصابها ؟! في الآونة الأخيرة باتت تتحدث بفضول عما جرى؟! وتسأل كثيراً. لقد ضقت ذرعاً بأسئلتها.

صمتت قليلاً وبدأ صوتها يبتعد ولم أستطع سماع البقية سوى "الرجل الذي ساعدها.. لقد أصبحت وقحة ".

أجابها "رادوفان " وكان صوته واضحاً: أبداً ..

ثم أتبع: دعيها تسأل عما تشاء، يوماً ما ستتذكر كل شيء، وهذا بديهي، حينها سيظهر من هو الوقح وسأقف أمامها..

استدرت للأمام ووضعت كفي على الباب مصغية باهتمام وإذ بي أسمع تتمة قوله " كمتهم طبعاً"

شخصت عيناي بذهول لوهلة. أردتُ أن أفتح الباب وأقف أمامهما واسأل بأي شيء سأتهم هذا الرجل أنا ؟! لكنّي خشيت أن أبدوا مسترقة للسمع أمامهما أيضاً إضافة لكوني فضولية.

ثم وصلني صوت "أرجينا": وكأني سأسمح بهذا !!

بعدها لن يصلني أي صوت!!.

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ باكراً على غير عادتي بينما كانت "أرجينا" لا تزال تغض في النوم، الحقيقة كان ما سمعته البارحة هو دافعاً لاستيقاظي باكراً، أردت أن أحصل على هذه الوظيفة بقوة حتى أتقرب منه أكثر وأعرف أكثر بأي تهمة سوف أقف وأواجه صاحب العينان الغريبتان هذا!!ما الذي كان يعنيه هذا الرجل؟!

أعددتُ إفطاراً خفيفاً ثم تأهبت للخروج والساعة تشير إلى السابعة والنصف، ثم خرجت لكني لم أتجه إلى حيث المكتبة؛ بل اتجهت إلى المقبرة.

وهناك عند شاهد قبر "فاتيم" لم أعد أشعر بساقيّ؛ حيث لمحتُ من بعيد تلك الأزهار البيضاء التي أوقعتها البارحة، موضوعة على قبر "فاتيم" بجانب الزهور الوردية التي أحضرها "رادوفان" أيضاً البارحة!!

الفصل الثالث :ذات البسمة.

كثير من كلماتنا، تخفي خلفها مشاعر أخرى مبطنة.

مضت عدة أيام منذ أن بدأت العمل في المكتبة ورغم أنّي كنتُ أرى "رادوفان" كثيراً، إلا أنني لم أستطع أن أتقدم خطوة واحدة نحو ما عزمت عليه.

ومع أنّنا عادة ما نعود سويّا، عدا الأيام التي يعمل بها هو في المساء، إلا أن الحديث طوال الطريق يكاد يكون بيننا منعدم، عدا من السؤال عن الصحة أو الحديث عن "أرجينا".

وذات مساء وبينما كنتُ عائدة للمنزل دون رفقة "رادوفان"، مررت من محل الحاج "حسن" والعمة "بهيرة" وألقيت عليهما التحية، اشتريت بعض التفاح وما إن همت "بهيرة" بإعطائي إياه ورفعت يدي اليسرى لألوحَ لها حتى انكشف ذلك السوار.

وظلت "بهيرة " تدقق النظر فيه باستغراب وعلقت قائلة: غريب "آمنه" لم أرك يوماً ترتدين أي حلي؟!

قربتُ معصمي لها وقلت: تعني هذا ؟! صحيح، أنا لا أهتم بهذه المشغولات اليدوية، إنه لفاتيم أختي وأظنّها قد حاكته بنفسها.

بدت ملامح "بهيرة" تتغير وهي تتأمل السوار، قطبت حاجبيها ثم سرعان ما رفعتهما وقد أخرجت تعبيراً يدل على الاندهاش وقالت نافية: كلا، كلا لقد تذكرته، هذا السوار لم تحكه أختك "فاتيم" لقد حاكته "أم رادو" أنا متأكدة من هذا، لقد اشترت الخيوط هذه مني، كما أنها...

مدت يديها وخلعت السوار من معصمي وأخذت تتفحصه بإمعان وأردفت: كما قلتُ لكِ انظري لهذه الغرز جيداً. هي من كانت

تحكيها بهذه الطريقة. أنا متأكدة.. أنا واثقة مما أقول لكِ كل الثقة، هل تعرفين لماذا اختارت هذا الخيط وهذا اللون بالذات؟!

كنتُ أستمع إليها بدهشة لم أستطع معها إخفاء صدمتي مما سمعته للتو فأعادت "بهيرة" السؤال مجدداَ، طرفت عينيّ قبل أن أجيبها بارتباك: لمـــاذا؟

وجهت "بهيرة" أنظارها للأمام وبدا وكأنها تنظر لشيء لا أراه أنا وتراه هي في عمق ذكرياتها وقالت: لقد اختارته لأنها كانت تقول بأن اللون الأزرق لوناً دافئاً يذيب كل ما يشعر به المرء من تناقض واختلافات، لقد اختارته لأنها كانت تقول بأنه رمزاً للأمل والسلام وتحقيق المستحيل، أذكر تماماً كيف أنها كانت تتفاءل باستقلال البوسنة وبأن العَلَمَ سيكون أزرق، لكنها ماتت في عام التسعين.

قاطعها الحاج "حسن" قائلاً: من الذي أصيب بالخرف الآن؟ أم "رادوفان" تلك المرأة اللعّانة لا يمكن لأحد أن ينساها، لقد ماتت بعد إعلان الاستقلال .

ازداد حماسها وهي تؤكد رأيها بقولها: أم "رادوفان" ماتت قبل أن ترى الاستقلال أنا واثقة.

-قلت بأنها ماتت بعد الاستقلال أثناء قصف "سراييفو".

حينها ووسط الحيرة التي حاصرتني لم أجد بداً من مغادرة المكان، مددت يدي وسحبت السوار من يد "بهيرة" وأدخلته بمعصمي وعلقت قائلة لتغير مجرى الحوار ولأجد لنفسي فرصة للمغادرة: ماتت قبله أم بعده .. لقد ماتت رحمها الله .

لكن يبدو بأنّي قد أخطأت حيث التفتت "بهيرة" لزوجها وعلقت قائلة: صحيح هل ماتت مسلمة؟

لوا فمه بضجر وهو يجيبها: يا امرأة الصليب على قبرها!

-ولكنها كانت تخفي إسلامها، أنا متأكدة .

-هذا لأنك تتعاطفين معها وكنتِ تحبينها.

حينها أيقنت بأن حوارهما هذا لن ينتهي؛ فانسحبت بهدوء من أمامهما ملوحة لهما بيدي رغم أنهما لم ينتبها لذلك أصلاً وظلا في ذات النقطة كل منهما يدلي برأيه.

وما إن ابتعدتُ عن المكان، حتى نظرت للسوار، وذاك المشهد بدأ يفرض حضوره في مخيلتي مجدداً، مشهد "رادوفان" وهو يبكي على قبر "فاتيم " ذلك اليوم.

إن كانت العمة "بُهيرة" محقة ولم تخنها الذاكرة وهذا السوار حاكته والدة "رادوفان" لمَ كان إذن في حوزة "فاتيم" ؟!

زفرتُ بضجر وكأنّي أدفع بتلك الأفكار بعيداً عني، حتى وصلت إلى المنزل.

ولجت سريعاً واتجهت نحو المطبخ ، كانت "أرجينا" منهمكة في إعداد العشاء، ألقيت السلام عليها ثم اتبعتُ قائلة: سأبدل ثيابي وأساعدك.

لكنها أجابتني: لقد أصبح كل شيء جاهزا، بدلي ملابسك وتعالي على الفور أنا أشعر بالإرهاق وأريد النوم سريعاً.

أومأت موافقة وما هي إلا لحظات حتى عدت وجلست في مكاني.

وما إن شرعت أرجينا بتناول طعامها، حتى حدثتها بصوت نادم دون أن أنظر إليها: أمي "أرجينا" أنا آسفة بشأن وقاحتي معك ومع السيد "رادوفان" في ذلك اليوم.

أطلقت تنهيدة متعبة وهي تجيبني: لا بأس "آمنه"، لقد نسيت ذلك لقد عذرتك من يومها، كما أنه من حقك أن تعرفي في النهاية حتى لو كرهتُ أنا الحديث عن ذلك.

تناولتُ قليلاً من طعامي في صمت ثم قلت بتردد: فقط أريد أن أعرف شيئاً واحداً.

رفعت " أرجينا " عينيها ناظرة نحوي باهتمام فأتبعت: هذا السوار هو لفاتيم صحيح؟

هزت رأسها موافقة، فأتبعت بتردد: وهل أهداها إياه "رادوفان "؟

رفعت "أرجينا" حاجبيها تختزل استنكاراً وأجابت: ربما، لا أعرف ذلك حقاً.

دققتُ النظر في عينيها وسألت: إذن ما العلاقة التي كانت تربط "رادوفان" بأختي، لقد أخبرتني بأن "رادوفان" جاركم منذ الصغر، ماذا عن أختي؟ هل كنا نقطن هنا أيضاً ؟؟ ماذا عن علاقتهما ؟!

هزت رأسها نافية وهي تكرر: كلا كلا، لم تكن "فاتيم" تقطن هنا ولكننا كنّا نرتاد ذات المدرسة ونحن أطفالاً وكنا نلعب في ذات

الحديقة، لقد كنّا أصدقاء وحسب، لا تسأليني عن مكان منزلكم فأنا حقاً لا أذكره لأنّي لم أزره يوماً، لقد أخبرتك بذلك سابقاً.

ثم وقفت وهي تحمل الطبق وقد علتها بسمة مرهقة وعلقت قائلة: تلك الأيام كانت صافية حقاً ودافئة.

ثم اتجهتْ نحو المغسلة وشرعت بغسل الطبق، ليصلها تعليقي بصوت خفيض ومتردد: "وهل ينتحب رجل في الثلاثين على قبر امرأة كانت صديقته أيام الطفولة وحسب؟!! "

استدارت نحوي سريعاً والتقت عيناها بعينيّ للحظات في صمت ووجوم قبل أن تدير رأسها مغادرة وهي تجيب بصوت خافت: وكيف لي أن أفسر الحماقة ؟!

ثم تركتني في دوامة من الحيرة تتقاذفني أكثر من قبل، جرّاء تعليقها الأخير، الذي بدا لي وكأنّها قد أفصحت به شيئاً عن مشاعرها تجاه "رادوفان"!!

ضربتُ على رأسي باستياء متمتمه: لو أن هذه الذاكرة تعمل فقط.

لم أستطع النوم ليلتها فدماغي لم يكن ليهدأ ويستكين بعد ذلك التعليق الأخير أو هل أسميه التصريح!! وظللت ساعات الليل بطولة لم يغمض لي جفن، حتى بزغ الفجر أقمت صلاتي ثم غفوت قليلاً.

ثم استيقظت بوجل؛ إذ كانت الساعة تشير إلى الثامنة، ارتديت ثيابي فوراً ولففت حجابي سريعاً وخرجت أسابق خطواتي ركضاً كعادتي حتى وصلت العمل وسُجل لي أول تأخير عن الدوام.

جلستُ على المكتب التقط أنفاسي وفجأة وُضِعت أمامي قارورة ماء جعلتني أرفع عينيّ سريعاً باستغراب، وإذ به "رادوفان" يبتسم بدفء شعرت معه بارتياح.

وفجأة برقت في خيالي صورة ذلك الرجل الذي له ملامح من بياض غير واضحة وهو يبتسم لي ويفتح شفتيه ويطبقه عن كلام لا أفهمه وبجواره امرأة ترتدي قميصاً أبيضاً وتضحك.

وكان بذات الوقت "رادوفان" يطبق شفتيه ويفتحهما قائلاً : أظن بأنك لم تتخلصي من عادتك وأتيتِ ركضاً !!

لكنّي لم أكن لأستوعب ما يقوله إذ بدا لي وكأن ذات المشهدين اندمجا سويَا فجأة، وأصبحت ذات الشفاه لصاحب الوجه الخالي من الملامح هي ذات الشفاه التي يتحدث بها "رادوفان" الآن!!

تنبه لنظراتي الشاردة تلك؛ فأدار وجهه في حرج مما جعلني انتبه وأشيح وجهي أنا أيضاً بحرج بالغ ثم اعتذرت قائلة: آسفة كُنتُ.. كُنتُ.. هذا لأني لم أنم البارحة طوال الليل، عموماً شكراً على الماء.

ثم مددتُ يدي والتقطت القارورة ولمحت على شفتيه ابتسامة خافتة قبل أن يقف مغادراً، لحقته بنظراتي ثم ارتشفت قليلاً من الماء، ثم سرحت في صفاء الماء.

هو.. هو ذلك الرجل ولا شك وتلك المرأة لم يعد هنالك شك، لابد أن تكون "فاتيم".

كنتُ أشعر بالإرهاق وهو يغزوني شيئاً فشيئاً، كما إن الإعياء أخذ مني مأخذه هو الآخر وبعد مضي ساعتين.

كنتُ أجمع الكتب من على الطاولات وأضعها على عربة لنقلها وما إن وقفتُ عند أحد الرفوف، حتى جمعت مجموعة منها وحملتها، لكنّها سقطت فجأة من بين يديّ؛ إذ كانتا ترتجفان وتبعثرت على الأرض.

التفتُ للخلف سريعاً بوجل خشية أن يراني أحدهم ثم انحنيت فوراً لالتقاطها لكنّي توقفت فجأة حين رأيت يد أحدهم تسبقني لالتقاطها، رفعتُ رأسي، فإذ برادوفان كما توقعت يقوم بجمعها في صمت دون أن يبدي أية تعليق، ثم وضعها على الرف المطلوب وتحدث أخيراً قائلاً: "آمنه" بإمكانك أن تعودي للمنزل، لقد أخبرتُ المدير بأنكِ مريضة وقد سمح لك بالذهاب، جئت لأخبرك بذلك.

ثم أمسك بذراع العربة وسحبها قليلاً ناحيته بينما كنتُ أنظر إليه بدهشة ثم تحركتُ قليلاً وجذبتها ناحيتي من طرفها الآخر واعترضت قائلة: كلا أنا لستُ مريضة، أنا فقط أشعر بالنعاس، سأواصل العمل على أية حال...

ثم أشحت بوجهي وابتسمت وأتممت مازحة: أم أنك ستشجعني على عادتي الكسولة؟

وحين لم يعلق بشيء نظرت إليه؛ كان ينظر لعيني مباشرة فشعرت بالحرج وملت بعيني يساراً وإذ به يعلق: حرارتك مرتفعة! أستطيع أن أؤكد لك ذلك، وجنتاك محمرة كما أنك تتنفسين بإعياء؛ لذا عليك أن تذهبي سريعاً للبيت وتناولي دواءً خافضاً للحرارة قبل أن تزداد عليك.

ثم سحب العربة واستدار مغادراً وهو يرفع يده ملوحاً ويقول: سأطمئن عليك مساءاً، كوني بخير.

توقفت للحظات أتبعه بنظراتي باضطراب ودهشة قبل أن أتحرك وأخرج من المكتبة.

وما إن اقتربتُ من المنزل حتى توقفت بقرب محل الحاج "حسن" والعمة بهيرة وحييتهما، فأشارت إلي العمة "بهيرة" من بعيد للاقتراب أكثر، فاقتربت وصافحتها، ويبدو بأنها قد شعرت بحرارة كفي فأجلستني على الكرسي وهي تقول بقلق: "آمنه" أنتِ تبدين محمومة ؟؟!!

هززت رأسي مؤكدة وقلت: لذا عدت من العمل باكراً اليوم.

ناولتني عصير التوت وقربته مني وقالت: خذي أشربي هذا سيخفض من حرارتك.

ابتسمت لها بامتنان وأنا أتناوله من يدها.

ثم أشارت لرجل كان يقف أمام الميزان وقالت: هذا "إبراهيم"، خريج كلية حقوق سيفتح مكتبه للمحاماة قريباً، وهو يساعدنا الآن.

ثم نظرتْ إليه وأشارت ناحيتي وهي تقول: هذه ابنتي وجارتنا "آمنه" ستلتحق بالجامعة بعد شهر.

ثم دخلت "بهيرة" للداخل وغابت قليلاً .

رحب بي "إبراهيم" أثناء ذلك مشيراً لي بيده وهو يقول: سررت بمعرفتك، إن استعصى عليك أمر في الجامعة بإمكانك سؤالي.

ابتسمتُ بامتنان وأنا أقول: شكراً لك، سأفعل.

عادت "بهيرة" وهي تحمل معها قرص دواء، قدمته لي وهي تقول: خذي هذا الدواء الآن .

تناولته بشكر وقلت بامتنان: شكراً لك.

التفت إلي الحاج حسن وقال: انتبهي على نفسك أثناء عودتك.

وقفتُ شاكرة لهما وأبديت امتناني، وهممت بالمغادرة لكن العمة "بهيرة" استوقفتني بقولها: هل سمعتِ لقد ضُرب اليوم ورشق بالحجارة رئيس وزراء* "صربيا" لقد حضر الذكرى التاسعة لإبادة "سربرنيتشا" وحكومتنا أدانت الاعتداء !! إنه يستحق ذلك، هو اعتذر بوقاحة ولم يصفها أبداً بالإبادة !! لو كنتُ هناك لما اكتفيت برشقه بالحجارة..

ثم حركت قدمها وأتبعت بحماس: لكنتُ قذفته بحذائي.

ابتسمتُ بإعياء وأنا أخفض رأسي ولكني فوجئت بكفيها وهي تضم خديّ وترفع رأسي وتتأمل ملامحي للحظات قبل أن تقول: من كان ليصدق بأنك كنتِ هناك ونجوتِ!! الحمد لله الحمد لله، حينما أنظر إليك الآن أشعر وكأنّي أرى "فاتيم"، لو أن الله كتب نجاتها.

---

*: لقد وقع هذا بالفعل حيث رُشق بالحجارة والأحذية رئيس الوزراء الصربي الكسندر فوستيش في الذكرى العشرين لمذبحة سربرنيتشا أي في عام ٢٠١٥م.

لا أعلم لمَ ارتجفت شفتايّ بعد سماعي قولها ذلك، هل كان بسبب حرارتي المرتفعة أم أنني حقاً كدتُ على وشك البكاء؟! ولولا أن الحاج "حسن" قاطعها بقوله "دعي الفتاة الآن، إنها متعبة" ربما لبكيت حينها دون توقف.

وضعتْ كفها على جبيني وهي تعلق: حرارتك فعلاً مرتفعة.

التقطتُ كفها وأنزلته وابتسمت بفتور محاولة تهدئة قلبي المضطرب، ثم شكرتها مجدداً وأكملتُ طريقي.

وما إن وصلت للبيت حتى رميت بجسدي على السرير بإرهاق ورحت في نوم عميق.

كنتُ أشعر بصوت أنفاسه المتقطعة، وصوت ضربات قلبه الذي يخفق بقوة من شدة الوجل، كنتُ لا أرى سوى ذقنه المعفر وأشعر بيديه وهما تطوقانني بشدة لئلا أقع.

ثم خفض رأسه نحوي، لكن لم تكن ملامحه واضحة، فتح فمه عن كلمات ودوى صوت انفجار رهيب، ثم التقطتني يد أخرى وحملتني بينما كنت أشعر بأن عينيه كانتا لا تزالان تنظران نحوي وابتسامة مرهقة تظهر على شفتيه، ثم هوى.

فتحتُ عينيّ بوجل لأرى سقف الغرفة فوقي! نهضت سريعاً، تلفتُ حولي بذعر ثم وضعت يدي على صدري الذي بدأ يعلو وينخفض بسرعة.

وفجأة فُتح باب الغرفة وظهرت من خلفه "أرجينا" وسألت: هل أنتِ بخير الآن؟؟ لمَ وجهك مصفراً هكذا؟!

ثم دنت مني وتلمست جبيني وشهقت بارتياح وهي تقول: الحمد لله لقد انخفضت حرارتك.. لماذا ذهبتِ إلى العمل وأنتِ مريضة؟

ثم ابتسمت وتابعت: لقد حضر قبل قليل "رادو" ليطمئن عليك.

لكنني كنتُ في عالم مختلف، رفعتُ رأسي ونظرتُ إليها بوجه مخطوف الملامح وسألت: "أرجينا" هل الذي أنقذني من "سربرنيتشا" كان جندي أصلاً ؟!

تبدد بسمة "أرجينا" السريع وقتها كان جواب كافياً عن سؤالي.

الفصل الرابع: عن قرب.

قد تغير مجرى حياتنا بعض الكلمات التي نظنّها قد جاءت عرضاً بينما هي في الواقع خلاصة تجربة لأحدهم أراد لنا أن نعبرها بسلام .

اليوم هو الأحد الأول من شهر رمضان المبارك، استيقظت أنا و"أرجينا " مبكراً قبل وقت العمل وعرجنا سويّا للمقبرة.

وما إن انتهت "أرجينا" من زيارة قبر زوجها ووالدتها، حتى سبقتها ببضع خطوات، ولوهلة سمعت صوتاً يقول "آمنه الشقية".

في البداية ظننت بأني واهمة!!

و لكن ما إن تابعت خطواتي، حتى شعرتُ وكأن المشاهد أمامي فجأة قد خلت من الألوان واحتالت للرمادي، وكل الأصوات حولي أخرست بالكتم.

وطفلة صغيرة تقف فوق بقعة بامتداد بصري ورجل يربت على كتفها مبتسماً، لا أستطيع أن أرى سوى ابتسامته وخلفه تقف امرأة تبتسم هي الأخرى ابتسامة مميزة على جانبيها غمازتين وترتدي قميصاً أبيضاً وشالاً أبيضاً مورداً على رأسها.

تمد الطفلة الصغيرة لسانها وهي تقول: سأتزوجك أنا، سأسرقك منها.

يلتفتُ ناحية المرأة ويعلق: لديك منافسة هنا.

فتجيب وقد بزغ احمرار خديها: هذه الطفلة لا يمكن توقع قولها مطلقاً، شقية.

يضرب على رأس الطفلة الصغيرة بخفة ويمد لسانه ممازحاً لها ويقول: سأتزوج "فاتيم" وسترين.

فتضحك المرأة بخجل ويتبدد البياض وتظهر عيناها الواسعتان المخضرة وجبينها الصغير وأنفها الطويل والضيق.

يستدير الرجل ناظراً إليها وعلى شفتيه بسمة هو الآخر ثم يعود لينظر للطفلة ليتبدد البياض وتظهر ملامحه هو الآخر.

شهقتُ حينها بذهول ونطقت اسمه بصوت واضح :
"رادوفـــــــان"

التفتت إلي " أرجينا" باستغراب وهي تسأل: ما باله "رادو" ؟

تنبهتُ لها وشعرت بالارتباك، تلفتُ حولي وإذ كل شيء كما هو، لا شيء أمامي سوى شواهد قبور تمتد على امتداد بصري، فأدركت بأن ما رأيته للتو لم يكن سوى جزءاً من ذاكرتي قد اتضح.

اقتربتُ من " أرجينا" ووضعت الأزهار على قبر "فاتيم".

ثم نظرت إلى" أرجينا" التي كانت تنظر إلي باستغراب

فسألت: أمي "أرجينا" كيف هو شكل "فاتيم" ؟ هل كانت جميلة ؟

ندت من شفتيها بسمة مشرقة وأجابت: هل تعلمين لقد حاولتُ كثيراً أن أجد صورة لها بين أغراضي المدرسية. أذكر بأننا قد التقطنا صورة معاً عند تخرجنا، طبعاً هي صورة أحادية اللون، ولكني للأسف لم أجدها، إضافة إلى أن الكثير قد ضاع أثناء الحرب كما أنه في ذلك الوقت لم يكن أحد يهتم بالتصوير كما الآن، عموماً هي كانت...

صمتت قليلاً وهي تنظر لحذائها، ثم رفعت رأسها وأتبعت: حقيقة لا أعلم كيف أصفها، ملامحها لا تختلف عنك هي بجمالك تماماً عدا أن لون عيناها يميل للخضرة أكثر عكسك، لكن ما كان يلفت فيها أكثر هو، حقيقة لا أعرف كيف أصفه ولكن حولها دوماً أشعر بجاذبية تجعل المرء يلتفت ناحيتها مرغماً.

ثم عادت تنظر للشاهد للحظة وكأنها تشاهدها فابتسمت ثم التفت إلي وقالت: هل نذهب؟ سنتأخر.

أومأتُ موافقة وابتسمت برضا وأنا أقول بتأثر: شكراً لك أمي "أرجينا".

وما إن ابتعدنا عن المقبرة حتى قالت "أرجينا" بلهجة موبخة: لا تتأخري اليوم عن إعداد الإفطار، سأعود في وقت متأخر؛ لذا عليك إعداده، رغم أني أشك بكِ فأنت كسولة جداً.

ضحكت بخفة وأنا أعلق قائلة: هل حقاً أنا كسولة لهذا الحد؟ لمَ كلكم تصرون على وصفي هكذا؟! سأعد لك اليوم كل ما تحبينه .

هزت رأسها بسخرية وهي تعلق: سنرى.

بعد ذلك تفرقنا واتجهت كلٌ منا في طريقها.

العمل في المكتبة في شهر رمضان كان أقل إرهاقاً، مما منحني الكثير من الوقت لأطلع على بعض الكتب.

ورغم أني كنت كثيراً ما أراقب "رادوفان" من خلف النافذة الزجاجية التي يعمل ورائها،

وأدقق في ملامحه كثيراً، علني أمسك بخيط أشده ليسقط ذاك الجدار الأبيض وينجلي كل شيء.

أصبحت اليوم أشد إصراراً بعد أن استطعت تذكر ذلك المشهد، فما تذكرته اليوم يثبت لي بأن "رادوفان" كان يحب "فاتيم" لكن ما الذي سيجعلني أدينه؟!!هذا ما يحيرني.

أمسكتُ كتاباً وأخذت أتصفحه وأنا أسترق النظر نحو تلك النافذة.

شدتني بعض عناوين الكتاب فقلبت عدة صفحات دون أن أنظر إليه وما إن رفعتُ عينيّ ناحية تلك النافذة مجدداً فوجئت بأنه غير موجود!

وفجأة طرأت في ذهني فكرة غبية، أردتّ أن أنظر إليه من الأسفل لأرى ذقنه عل بعض شكوكي تتبدد.

بحماقة تقدمت نحو النافذة، أتلفت في كل الاتجاهات لأطمئن بأن أحداً ما لن يراني فقد كان غالبيتهم في حالة استرخاء تام وكسل وبعضهم قد نام فعلاً.

انحنيت واستندت بركبتي على الأرض ورفعت رأسي ناظرة نحو النافذة، في ترقب تام عله يُطِل من ورائها فأتمكن من مشاهدة ذقنه من الأسفل.

لكني شعرتُ بحركة خلفي، فألتفتُ فوراً و أطلقت صرخة بفزع و يا للدهشة!! فقد كان من أنتظره جالساً أمامي ينظر إلي باستغراب، رفع حاجبيه باستنكار وسأل: "آمنه" ما الذي تفعلينه بالجلوس هنا؟!

أدرت رأسي بخجل وارتباك وأخذتُ أتلمسُ الأرض بكفيّ وكأني أبحث عن شيء ما وأجبت بحماقة: كنتُ.. لقد كنتُ.. صحيح لقد رأيتُ نملاً يمشي هنا.

ثم استدرت ببطء ناظرة إليه بصمت للحظة ظل خلالها هو الآخر صامتاً قبل أن ينتفخ فمه بضحكة، أدار رأسه وغطى فمه ثم وقف معتدلاً وهو يعلق بسخرية: هل عينك أحداً هنا لمراقبة النظافة يا "آمنه" !!

لكنّي مع هذا لم أقف ولم أتحرك ولم آبه بسخريته؛ بل ظللت أنظر إلى ذقنه من الأسفل بذهول وأنا أحاول التذكر، انتبه على نظراتي تلك، بات ذلك واضحاً في تلك النظرة المستفهمة التي رمقني بها.

فوقفت سريعاً بحرج ورحت أنفض ملابسي وبينما أنا كذلك فوجئت بضربة خفيفة على رأسي، رفعت عينيّ أنظر إليه بتعجب وذهول قبل أن يعبر من جواري وهو يقول: لازلتِ شقية يا "آمنه".

ظللتُ متسمرة في مكاني، أتبعه بنظراتي وأنا أشعر بنبضات قلبي تزداد، أتلمسُ أثر الضربة على رأسي حتى دخل لمكتبه.

عدتُ بعدها للرف الذي كنتُ أقرأ فيه وتناولت نفس الكتاب واتجهت به لمكتبي عل هذا الاضطراب في نبضاتي يخف.

ظللت أقرأ باندماج لمدة ثلث ساعة، ثم شعرتُ بشخص يقف أمامي، رفعتُ رأسي وإذ برادوفان يقول: "الإسلام بين الشرق والغرب" صحيح؟!

أغلقت الكتاب على أصابعي حيث وقفت وسألت باستغراب: كيف عرفت وأنت لم ترى غلافه؟!

أشار إليه وقال: لقد لمحت بعض الأسطر، لقد قرأتُ كل كتب "علي بيغوفيتش"*.

لوهلة ظللت مصدومة أحاول استيعاب ما قاله للتو ثم علقت قائلة: هذا غريب حقاً، غريب بالفعل.

جلس وهو يقول: ما المشكلة؟! لقد كنتُ معجباً بشخصيته كثيراً، لقد رأيته عدة مرات وتحدثت معه أيضاً، هو رجل طموح، عادل، وحكيم، تعجبني دقته في وصف الأشخاص. لم أرَ شخصية مثله.

ركز نظره على أصابع يده فوق المكتب ثم بدأ يُحرك سبابته، يضرب بها بخفه وكأنه ينوي قول شيء ما وتردد، وأخيراً فتح فمه عن قوله: "شقيقتك كانت تحبه أيضاً ".

لا أعلم كيف انزلقت من فمي بلا خجل: وكنتَ أنتَ تحبها ؟

---

*:علي عزت بيغوفيتش ولد في ٨ أغسطس ١٩٢٥م وهو أول رئيس جمهوري لجمهورية البوسنة والهرسك بعد انتهاء حرب البوسنة والهرسك، هو ناشط سياسي بوسني وفيلسوف إسلامي، مؤلف لعدة كتب أهمها الإسلام بين الشرق والغرب، خاض علي بيغوفتش قبل توليه رئاسة البوسنه والهرسك العديد من الصراعات مع خصومه من الشيوعيين واليوغوسلافيين والصرب. كانت هذه الصراعات تتمحور بين صراعات سياسية رافضة للاحتلال والتي كان ثمنها السجن، أو صراعات فكرية كان هدفها تجديد الفكر الإسلامي في دولة تخضع لاحتلال شيوعي ،اعتزل الحياة السياسية عام ٢٠٠٠م ومات في ١٩ أكتوبر في عام ٢٠٠٣م بعد أن حصل على عدة جوائز من ضمنها جائزة الملك فيصل رحمة الله لخدمة المسلمين عام ١٩٩٣م.

نظر إلي واجماً، ثم سرعان ما أبتسم وهو يجيب: ليس كما تتصورين، كان الكل يحب أختك "فاتيم"، كل من يعرفها فسيحبها أكيد.

مددت يدي إليه وكشفتُ عن السوار وقلت مستفهمة: ولهذا وهبتها هذا السوار؟! ولهذا ظل في معصمها دوماً؟!

ابتسم بفتور وقد مال بعينيه يساراً، بدا وكأنه قد شعر بأنه قد حوصر، وبأن الكذب لن يفيد لذا؛ عاد لينظر إلي بجدية وسأل: ما الذي تتذكرينه يا "آمنه" ؟!

هززت رأسي بخيبة وأنا أنظر للجهة الأخرى وأجيب: للأسف ليس كثيراً.

حينها سمعت صوتاً ينادي باسمه، التفتَ إلى جهة الصوت وبدا نصف وجهه لي، حدقت فيه وما إن هم بالوقوف حتى أمسكت بكم قميصه في دهشة واستنكار منه وظللت أحدق في عينيه

للحظات قبل أن أقول: سيد "رادوفان" هل كان أنتَ من عبرت بي نفق الأمل يومها؟!

الصوت ما زال ينادي عليه وهو واقف ينظر نحوي بوجه شاحب، التفتَ ناحية الصوت وأخيراً حرك يده محاولاً أن يزيح بكفي وهو يقول معتذراً: سنتحدث عن هذا لاحقاً.

لكني قبضتُ على كم قميصه بقوة أكبر وبعينين ممتلئة بالعناد حدقت به وقلت: الأمر لا يتطلب كل ذلك.. نعم أم لا؟؟

أرخى شفتيه قليلاً وكأنه هم بالإجابة ثم أطبق عليهما وصمت للحظات والصوت كان ما يزال ينادي، وأخيراً ثبت نظره نحوي وقال بثبات: نعـــــم لقد كان أنا.

أرسلتُ يده أخيراً، أشاح بوجهه واستدار فوراً بينما خفضت رأسي على المكتب. زفرتُ بإعياء، وأنا أحاول تذكر ملامحه آنذاك وهو يحملني بين يديه، و صوت أنفاسه المضطربة تصلني وخفقان قلبه من الوجل واليد التي استملتني وتلك البسمة الخافتة التي ارتسمت على شفتيه وهو يودعني، لكن دون جدوى..

وأخيراً رفعتُ رأسي وعدت لأقرأ في الكتاب.

وعند الساعة الرابعة ما إن انتهى الدوام، حتى خرجتُ عائدة إلى المنزل وبرفقتي يسير "رادوفان" ولكن كل منّا ينظر لاتجاه مختلف.

وأخيراً بعد أن قطعنا مسافة تحدثت قائلة: لمَ فعلت ذلك ؟! أعني لمَ عرضت نفسك لكل تلك الأهوال لتنقذني.

توقف للحظة ثم تابع طريقة وقد ظهرت بسمة شاحبة على شفتيه وأجاب: لا أعرف، سؤالك هذا أشبه بمن يسأل من ينقذ شخصاً يغرق أمامه لمَ فعلت ذلك!!حيث لا أجابه والحقيقة لم أفعل ذلك من أجل إنقاذك فقط، كنتُ هارباً من الخدمة أيضاً.

أدرتُ رأسي ناحيته ناظرة إليه وقلت: أنا لم أتذكر ذلك بعد، لكن كل ما أذكره هو صوت قلبك الوجل وطرف ذقنك، وابتسامتك، لقد عرفتُ بأنه أنت رغم أنها ذكرى ناقصة.

توقف فجأة ونظر إلي وسأل: لهذا الحد تودين التذكر؟!

ابتسمتُ باستنكار وأنا أشيح بعينيّ بعيداً فلم أتوقع هذا السؤال وأجبته مبررة: ألا تعرف بأن الإنسان بلا ذاكرته إنسان ناقص إنسان بلا روح!!

رسم ذات البسمة على شفتيه وعلق: أنتِ تعتقدين بأن ذكريات ماضيك ستضيف الجديد لحاضرك!! ماذا لو كانت ذكريات الإنسان مميتة، موجعة؟!

ركزتُ النظر إليه باهتمام فأتم: هي لن تكون سوى عائق أمام حاضره، أحياناً يتساوى النسيان مع الموت وعليك أن تختار أحدهما.

-هل تعني بأنه علي النسيان وحسب وأن لا أعطي أي بال لتلك الذكريات المشوشة التي تحاصرني في أوقات كثيرة ؟؟!

سألته فأجابني وهو يتابع طريقه: لم أكن أقصدك بكلامي، كنتُ أتحدث بشكل عام.

ثم توقف وركز في عينيّ ولأول مرة أراه يطيل النظر إلي هكذا وقال كلمات أربكتني بقدر ما قدستها بعد ذلك حيث قال: "لا تدعي أحداً يملي عليك ما تفعلينه، أفعلي ما تؤمنين به وحسب"

ثم أدار رأسه للجهة الأخرى وعيناه تطيشان في العابرين من أمامه وأتبع: عموماً كنتِ حينها في عمر العاشرة ورغم أنكِ غادرت "سراييفو" قبل خمس سنوات لم أرك حينها إلا أنني قد عرفتك فوراً، أنا لم أنقذك من المجزرة. لقد كنتِ حاضرة فيها، لقد رأيتِ كل ما حدث، لكن أنا أنقذتك من الدفن فقط وأنتِ حية.

توقف فجأة ونظر إلي مبتسماً وقال مازحاً: الآن وقد عرفتِ الرجل الذي ساعدك، هل تودين ضربي؟

ابتسمتُ بحرج وأدرت وجهي وأنا أحاول مدارة دموعي أيضاً ثم اعتذرت قائلة: آسفة، لقد كنتُ فظة في حديثي ذلك اليوم، لم أكن أقصد ما أقوله حتماً، كنتُ متضايقة بسبب أن " أرجينا" تتهرب من أسئلتي دوماً، وكذا أعتذر عن فظاظتي معك اليوم بشأن حديثي عن "فاتيم" فهذا أمر يخصك في النهاية حتى لو كانت أختي.

انحنت زاوية فمه مشكلة بسمة متألمة ثم تابعنا الطريق.

وقبل أن نقطع الشارع الأخير توقفت وقلت: أريد أن أنعطف يساراً لأشتري بعض الفاكهة من الحاج "حسن وبهيرة ".

ثم أتبعت بتردد وأنا أشير بيدي يساراً بصوت يملأه الخجل: هل ترافقني؟

أومأ موافقاً ثم سار معي وما إن أصبح المحل على مرأى بصرنا حتى لوحت بيدي للعمة بهيرة والحاج، وكان "إبراهيم" منشغلاً بوزن الفاكهة لأحد الزبائن.

وما إن اقتربنا حتى هتفت "بهيرة " باندهاش قائلة: "رادوفان" ؟؟ أهذا أنت يا "رادو" ؟!

حياها ببسمة مشرقة وهو ينتقل بعينيه نحوهما ويقول: السلام عليكما، لقد مضت مدة طويلة لم أراكما.

بعتب علقت "بهيرة" يا لك من طفل سيء، أهكذا تنسى جيرانك ولا تسأل عنهم ؟! ما كانت والدتك لترضى بذلك.

خفض رأسه بخجل والابتسامة لا تزال على شفتيه، حتى "رادوفان" بدا طفلاً أمامهما!!

حينها نادني "إبراهيم" قائلاً: ما الذي تريدين شرائه يا " آمنه" ؟

التفتُ إليه بارتباك ثم أشرت ناحية التفاح وقلت: من فضلك ضع لي كيلو من التفاح.

رفع "رادوفان" يده وهو يقول: وأنا أيضاً من فضلك أعطيني كيلو من التفاح.

التفتُ ناحية "رادوفان" وأنا أشير نحو "إبراهيم" وقلت: صحيح سيد "رادوفان" هذا "إبراهيم" يعمل هنا منذ شهر، لقد تخرج من كلية الحقوق وسيفتح مكتبة قريباً.

مد "رادوفان" يده مصافحاً له بحماس بينما تلكأ "إبراهيم" قبل أن يمد يده ببرود بادياً على وجهه بوضوح.

لذا ارتبك "رادوفان" وهو يعلق: سررت بمقابلتك.

بينما اكتفى الآخر بابتسامة تنم عن عدم الارتياح وهز رأسه.

جعلتني أقف بحرج وأنا انظر لوجه "رادوفان" لكنه لم يبدي أي تعليق.

وضع التفاح في كيسين ووزنهما وناولنا إياهما، سلمنا النقود للحاج ثم غادرنا المكان و"رادوفان" يقطع وعداً للعمة "بهيرة" بزيارتهما قريباً.

وما إن وصلت عند البيت حتى ابتسمتُ بامتنان وقلت: سيد "رادوفان" شكراً لك لأنك رافقتني لمحل الفاكهة.

أومأ مبتسماً ثم قال: هل يمكنكُ الاكتفاء بقول سيد "رادو" فقط ؟!

رغم أني استنكرت ذلك بداية إلا أني أومأت موافقة سريعاً فربما هو يحب اسمه هكذا.

ثم أدرتُ الباب وأغلقته خلفي وما إن وقفت في الصالة، حتى ألقيتُ بنظرة من النافذة وإذ بي أرى "رادوفان" بعينين شاردتين ينظر للسماء، زفر بعمق ثم فتح فمه وكأنه يقول شيئاً ما ثم تحرك أخيراً وأتجه ناحية بيته.

الفصل الخامس :الرغبــة .

"الرغبة" تسبق الإنجاز، ببساطة لن تظفر بشيء دون أن ترغب به.

وأخيراً جاء ذلك اليوم الذي طالما انتظرته طويلاً ، ورغم ذلك تأخرتُ في الاستيقاظ كعادتي.

ارتديتُ القميص والتنورة التي أهدتها لي " أرجينا" وخرجتُ راكضة، عبرتُ الحديقة مسرعة ولمحت "رادوفان" والذي كان يقرأ الجريدة ووصلني صوته المرتفع وهو يقول: "آمنه" تمهلي.. لا تركضي هكذا.

لوحت له بيدي وأجبته بصوت مرتفع: لقد تأخرت في أول يوم لي في الجامعة، لن أصل للترام في وقته.

واستمررت بالركض وأنا أنعطف يميناً، ثم لمحت "أرجينا" وهي واقفة أمام الباب تتحدث معه.

استمررت بالركض حتى وقفت أخيراً أمام محطة الترام وأنا ألهث أنفاسي بعينين شاخصتين.

وما إن وقف الترام حتى هجمتُ بسرعة لأصعد وأحصل على مكان أجلس فيه بعد كل هذا الركض المحموم.

وما إن جلستُ وأرخيتُ رأسي للخلف قليلاً، حتى تراءت لي صورة جندي تتدلى بندقيته من خصره لحد قدميه، يسحب "فاتيم" ويجرها وهي تمد يدها تستغيث وامرأة تحتضن طفلة وتصرخ: "فاتيـــم" "فاتيـــــــــم".

فتحتُ عينيّ بفزع، تلفتُ حولي ولوهلة ظننتُ بأن الجميع قد سمع الصوت، لكن الكل كان يبدو هادئاً!

عدتُ لأرخي رأسي، لكنّي لم أغمض عيني هذه المرة خشية أن أرى البقية.

لابد وأن ما رأيته للتو جزءاً من ذاكرتي، ربما حدث ذلك حينما كنّا في "سربرنيتشا" لا تفسير آخر.

حدقت في السيارات والعابرين، وتنفست بعمق.

وأخيراً وبعد طول مسافة توقف الترام ونزلتُ على الفور ومشيت مسافة طويلة، حتى بدت بوابات كلية الحقوق على مرأى بصري، أردت أن أقفز، أن أركض لكن كان الجميع يسير حولي بهدوء، وحتماً سيستنكر الجميع ذلك فمنذ اليوم علي أن أتصرف كطالبة جامعية.

وأخيراً وقفتُ في حرم الكلية، أنظر باندهاش لكل شيء حولي.

أطير بعيني من زاوية لأخرى، فهنا .. هنا حقاً عالم مختلف.

فجأة وقفت أمامي فتاة وعلى محياه ابتسامة طيبة، سألت: طالبة جديدة ؟!

أومأت مؤكدة وعلقت: " وكيف عرفت؟ "

أجابتني سريعاً: كل طالبة جديدة تظهر نفس تعبيرات وجهك، أنا في السنة الثانية إن شئت سأرشدك، أريني جدولك ؟

بحماس أخرجته من الحقيبة وناولتها إياه.

أطلعت عليه للحظات ثم أعادته لي وأشارت ناحية مبنى وقالت: انظري أغلب محاضراتك ستكون في ذلك المبنى هناك، وبجواره

مبنى آخر، عادة كل طلاب وطالبات الحقوق يتناولون غدائهم فيه، إن دخلت للمبنى بإمكانك تتبع أرقام القاعات.

شكرتها بامتنان، ثم تحركتُ سريعاً نحو ذلك المبنى ولم أته كثيراً في العثور على قاعتي الأولى.

أمضيت وقتي بتفحص وجوه من حولي ومن بجانبي من طلاب وطالبات وكنتُ أدقق في وجوه الطالبات متسائلة عن أي واحدة منهن ستصبح صديقتي في هذه المرحلة ؟!

وأثناء ذلك حضر الدكتور وألقى السلام علينا ثم عرف بنفسه وبعد ذلك وقف محاضراً لنا ثم ختم بقوله: الطلاب والطالبات في كلية الحقوق، هل فكرتم في هذا السؤال: ما الذي سأحققه لوطني بدراستي للحقوق؟ ما هو أهم شيء أريد تحقيقه ؟ ما هي أهم أمنياتي؟

وكان يختار من الطلاب والطالبات بطريقة عشوائية للإجابة عن سؤاله، وكانت إجاباتهم منوعة وكلاً كان يدلي دلوه في الموضوع، كنتُ أستمع لإجاباتهم باهتمام رغم أنّي لم أفكر بجواب وفجأة رأيتُ الدكتور وهو يشير ناحيتي، نظرتُ لمن خلفي مستفهمة فردت قائلة: إنه يقصدك أنتِ.

فوقفتُ على عجل وبارتباك واضح، فتحت فمي بتردد وبدا واضحاً على وجهي بأنّي لم أفكر في ذلك من قبل وإن ما أفعله هو الإرتجال..

وفجأة تذكرتُ حديث العمة "بهيرة" معي في ذلك اليوم، عندما أخبرتها بقبولي في كلية الحقوق، لا أعلم لمَ طرأ ذلك في ذهني

وقتها؟! ولكنّي تنفست بعمق ثم أجبت بثقة: اسمي "آمنه حدجتش"، أتمنى أن يأتي يوم وأقف فيه كمدعية عامة أمام كراديتش وراتكو ملاديتش* .

وما إن نطقتُ بذلك حتى علا صوت الضحكات الخافتة شيئاً فشيئاً ونظر إلي البعض بنظرات استحقار، وبعض تعليقاتهم الحادة كانت تصلني وأسمعها بوضوح تام..

"لقد أخذها الحماس" "هل تعتقد بأن البوسنة بتلك القوة لتحاكمهما؟ نحن لا نزال نبني ونرمم" "هل تطمح بوظيفة في المحكمة الدولية " "يا لها من حالمة " " ألم يمت الرجلان أصلاً "

استثارت تلك التعليقات اللاذعة غضبي فبدل من الجلوس كما أشار لي الاستاذ، تابعتُ حديثي قائلة: أنا أعلم بأن البوسنة ليست بتلك القوة، وأعلم أن ويلات الحرب لم تنته حتى الآن، ولا زلنا نعاني منها جميعاً، أنا فقدت كل عائلتي وكل أقربائي، وأعترف بأن هذه الأمنية وليدة هذه اللحظة والتو، ولكن ما المشكلة في أن أتمنى ذلك أو أسعى إليه، سواء كان الآن أو غداً أو في أي وقت؟! ألم يقل رئيسنا "بيغوفتش" ذات مرة علينا أن نجعل البوسنة أفضل مما كانت عليه قبل الحرب؟!!

---

*: راتكو ميلاديتش: كان ضابطاً في الجيش الصربي وهو متهم بتهم من بينها الإبادة الجماعية وجرائم ضد الإنسانية التي حلت بالبوسنة والهرسك وكان أبرزها على الإطلاق مذبحة سربرنيتسا عام ١٩٩٥ والتي راح ضحيتها ثمانية آلاف رجل وشاب مسلم، بقي ملاديتش فارا لمدة ستة عشر سنة إلى أن اعتقل يوم الخميس الموافق ٢٠١١/٥/٢٦ في قرية لازاريفو في شمال صربيا متخفيا تحت اسم ميلوراد كوماديتش.

لماذا لا نحاكم بأنفسنا المجرمين؟! ما المانع؟! من أجل القوانين الدولية إذن؟!، هه..

نطقت الأخيرة بلكنة ساخرة ثم تابعت: في "بلغراد" تعلق صورهما كبطلين للحرب ضاربين القوانين الدولية عرض الحائط؟! لمَ إذن استنكرتم قولي؟! هل أوقفت القوانين الدولية الحرب آنذاك؟! هل كان باستطاعتها أصلاً إيقاف آلة الحرب؟! لمَاذا لا أسمع جواباً ؟!

عم الصمت للحظة ثم صفق الدكتور وعلق بإعجاب قائلاً : أحسنتِ . ثم وجه نظراته نحو بقية الطلاب وأتم: " آمنه" تؤمن بنفسها؛ لذلك هي تستطيع أن تتمنى وتحلم، ما الذي يمنعنا من أن نحلم ونحقق ما نريده ؟! أنتم الشباب عليكم أن تؤمنوا بأنفسكم أولاً.

صفقت طالبة وهي تنظر ناحيتي بإعجاب ثم تبعها البقية، وأًخيراً جلستُ بعد أن هدئت وسط تلك الصفقات المشجعة، وأنا أشعر بدفعة ثقة أكبر.

وما إن انتهى جدول محاضرات اليوم الأول حتى خرجتُ سريعاً من بوابة الكلية، صعدت الترام لأعبر المسافة الطويلة ذاتها وأخيراً نزلتُ وأسرعتُ راكضة ناحية المكتبة، ولم التقط أنفاسي إلا بعد أن جلست على المكتب.

وضع أمامي "رادوفان" قارورة ماء، ابتسمتُ وأنا التقطها وقلتُ مازحة: أخشى أنك ستضطر لإحضار قارورة ماء لي كل يوم، فيما يبدو سأصل متأخرة مع داومي بالجامعة.

ابتسم وهو يجيب: لا بأس.

ثم سأل : كيف كان يومك الجامعي الأول؟

حسرت عينيّ بكفي كنتُ أشعر بإرهاق وأنا أجيبه: لقد تعرضتُ لموقف محرج بالفعل في أول يوم، ولولا موقف الدكتور، أظن بأنّي لم أستطع الاستمرار والحضور إلى...

لم أكمل حديثي؛ إذ شعرتُ بشيء أحاط معصمي**!** فأزحتُ كفي؛ لأرى، كان "رادوفان" ممسكاً بمعصمي ثم أفلته بحرج وعاد ليجلس على الكرسي وهو يسأل بارتباك وكأنه لم يفعل شيئاً غريباً للتو: وما الذي حدث؟

وجمت للحظة ثم أشحت بعيني وأجبته : تصور لقد سأل الدكتور عن أمنياتنا وما الذي نريد أن نحققه ثم أشار علي بالوقوف وبما أني لم أفكر في هذا من قبل، لا أعلم كيف طرأ هذا ببالي فجأة، ستسخر مني أنت أيضاً.

عدت لأنظر إليه فوجدته يبتسم بهدوء فازداد توتري ومع ذلك تابعت وأنا أضحك ببلاهة: لقد قلتُ له أني أتمنى أن أقف مدعية عامة أمام "كراديتش وميلاديتش"**!!** تصور مدى سخافة الفكرة. وفوق هذا أحسست بكبريائي قد طعن بعد أن سخر مني الطلاب بضحكاتهم فقمت بالدفاع عن فكرتي بكل قوة.

ثم رحت أرشف الماء من القارورة وحينما لم يُعقب بشيء، نظرت إليه، كان يحدق فيّ بصمت، لذا أشحت عيني بارتباك وسألت: ما المشكلة؟**!** لماذا لم تعلق ولم تضحك أنت أيضاً ؟**!**

أجابني وهو يقف قائلا: ولماذا ينبغي علي أن أضحك من هذا**!**

تذكري هذا جيداً: " ليس الإنسان بما يفعل؛ بل بما يريد، بما يرغب فيه بشغف" * وإن أرادت آمنة ذلك فما المشكلة إذن؟!!

ثم استدار ولكنه عاد ليلتفتَ نحوي وقد غشيت وجهه لمحة حزن رغم ابتسامته التي أظهرها، وأتم: أنا أتوق لذلك حقاً.

ثم غادر، طاشت عيناي في كل الاتجاهات ثم وقعت على معصمي الذي أمسك به قبل قليل، أحطته بكفي الأخرى وأنا أنظر إليه وهو يبتعد، ومنذ ذلك اليوم لم تغادرني تلك الفكرة أبداً.

---

*: الجملة من أقوال الرئيس علي عزت بيغوفتش.

الفصل السادس :تســــــــــــل.

الشوق هو: أول تبعات الحب.

مضتْ عدة أشهر بعد أن التحقت بالجامعة، انتظمتُ خلالها أيضاً بالذهاب للعمل؛ رغم اضطراري الدائم للركض والإسراع لأصل في الخامسة مساء. الحقيقة التي جعلتني أتمسك بهذا العمل بالذات وعدم بحثي عن عمل قريب من الجامعة هو كسلي المعتاد عن البحث عن غيره كما وأنه مريح ولا يتطلب جهداً والأهم هو: رؤيتي "لرادوفان" فيه أكثر.

منذ ذلك الموقف الأخير، بدأت أشعر بأن علاقتي برادوفان غدت أقوى فتلك الضحكات المرتاحة التي تخرج ملأ فيه والتي كنتُ لا أراها سوى مع "أرجينا"، أصبحتُ أراها تخرج أمامي في أوقات كثيرة رغم محاولاته المكشوفة لمنعها؛ للظهور بمظهر أكثر جدية.

وفي كل مرة أرى محاولاته تلك تغمرني سعادة كسعادة من ربح معركة كان الكل يراهن على خسارتها.

ولكن.. حينما اسأل نفسي بصدق: هل هذا ما كنتُ أسعى إليه؟!

سأجيب حتماً بلا ..

لكن ما الذي يجعلنا نحيد عن أهدافنا التي رسمناها وننخرط في مشاعرنا وننجرف؟!

لماذا ننساق خلف مشاعرنا متجاهلين كل شيء!!

هل يعني هذا بأنّي بدأت أتعلق به؟! لا أدري حقيقة لكن ما أنا واثقة منه ومتأكدة

هو: إن مر علي يوم لم أره خلاله صباحاً ولم يكن لديه عمل مسائي فإنّي أشعر بشعور فظيع يشبه الخواء ربما يسمى الفقد وربما اشتياق وربما اعتياد من نوع ما؛ لذا أجدني يومها أتفنن في التبرير لإيجاد أي حجة؛ لدعوته أو للمرور عليه وإلقاء التحية. إذن هل يصح القول بأن يومي دون رؤيته يبدو ناقصاً؟!

في يوم عطلتي عن الجامعة، كنتُ متفرغة صباحاً ولم يكن لدي شيء لأعمله ، أما "أرجينا" فقد خرجت مسرعة للعمل.

ظللت أتثاءب باستمرار لنصف ساعة حتى قررت أخيراً الخروج والتنزه فرغم مضي أكثر من شهر والفصل الدراسي أوشك على الانتهاء إلا أنّي وحتى هذه اللحظة لم أستطع إقامة أي علاقة مع طالبات شعبتي، لا لشيء؛ إلا أنني كرهتُ كثيراً ذاك التباهي الذي لاحظته على الأغلبية ومع إنسانة صريحة مثلي محال أن تستمر علاقة كهذه.

طرأت في ذهني فكرة مجنونة ، أردتُ أن أخرج مع "رادوفان" خططتُ لأقول له بأنّي سأذهب لأبتاع بعض الفاكهة والخضار ثم أدفعه للسير والتنزه معي.

قفزت بحماس لأتأهب بمجرد تصوري بأنّي سأفعل هذا.

سرعان ما أصبحت جاهزة ولففت حجابي، ثم خرجت من الباب وعبرت الحديقة ونظرتُ إلى طاولته الخشبية حيث يجلس دوماً لكنه لم يكن موجوداً! فذهبتُ لمنزله وطرقتُ الباب فأنا أعلم يقيناً بأن لا عمل لديه هذا الصباح.

وقفتُ للحظات بانتظار الرد، ثم عدتُ لأطرق الباب مجدداً لكن لم يُجب أحد، أحسست بالخيبة؛ فاستندت على الباب واضعة يدي على المقبض، زفرت بيأس لانهيار كل ما خططت له.

ومن دون أن أدرك كنتُ قد حركت مقبض الباب؛ ففتح !!

اعتدلت سريعاً وأنا أنظر للباب النصف مفتوح.

بالطبع هو ليس موجود !!

وبالطبع أنا لن أفعل شيئاً سيئاً !!

كأن أفتح الباب وأنجرف وراء فضولي !!

لذا أنا سأغلق الباب وأخرج.

طبعاً كان ما فعلته هو العكس تماماً، تقدمت ودفعت الباب لأجد نفسي داخل الصالة.

كان كوب قهوته ممتلئ للنصف وبجواره كتاباً و...

نعم، ذلك الدفتر البني الذي يثير فضولي. اقتربت ببطء منه وكأنّي لص بالفعل، التقطته وشعور باللوم يراودني ومع هذا، فتحته ..

وقعت عيناي على الأسطر الأولى، حيث كان مكتوباً:

"لم أكن لأهتم يوماً بما كان يقال لنا في المدارس، كانوا يرددون كل صباح (تيتو _ يحيا الزعيم تيتو) وكنّا مثل الببغاوات نردد : "يحيا تيتو يحيا الزعيم تيتو".

كانوا يحدثوننا في الحصص عن فلادمير لينين وعن ستالين ..

وكنتُ أعلم يقيناً بأن أمي... "

أغلقته بقوة، أحسستُ بالذنب، ما كان علي التقاط هذا الدفتر، فهو يكتب به مذكراته ولا شك.

أعدته لمكانه، ثم خرجت بسرعة خشية أن يُلقى علي القبض بالجرم المشهود.

طوال الطريق الذي سرت فيه دون هدي لمت نفسي كثيراً.

ما كان علي أن التقطه أصلاً، ما كان علي أن أدخل لمنزله بغيابه من الأساس، إلى أي حد وصلت أنا ؟! ما الذي أريده بالضبط بارتكاب كل تلك الحماقات؟!

كنتُ أشعر بأن جميع المارقين من أمامي يسمعون حديثي؛ إذ أن الجميع كان لا يمر إلا وقد نظر إلي!!

أحسست بالخوف والارتباك!

هل مكتوب على جبيني محامية فضولية متطفلة ؟! ما الذي يجعلهم ينظرون إلي هكذا؟!

لكن ما إن خفضت رأسي ونظرت لقميصي الذي ألبسه، حتى عرفت السبب .

شعرت بالحرج وأنا أعود أدراجي للمنزل.

لقد اكتشفتُ بأني ارتديت القميص بالمقلوب من شدة حماسي!!

عدلته ثم خرجت بعدها، أردت أن أنعطف عند محل الحاج "حسن وبهيرة"، لكن ما إن هممت بالانعطاف حتى سمعت أحدهم ينادي: "آمنـــــة"؟

التفتُ إلى مصدر الصوت كان "إبراهيم " يقف أمامي مبتسماً وهو يقول: كيف هي أحوالك بالجامعة ؟!

ابتسمتُ بحرج وأنا أجيبه: بخير والحمد لله.

ألقى بنظرة سريعة علي وعلق قائلاً: أرى ذلك لدرجة بأنك ازددت نحاله! انتبهي على طعامك، يبدو بأنك ترهقين نفسك.

تعليقه جعلني أتلفتُ حول نفسي للتأكد، أدرك هذا فأعتذر بحرج: آسف ما كان علي قول هذا لك، لكن هذا يحدث دائماً؛ فطالبات الجامعة يهملنّ غذائهن بسبب ضغط الدراسة.

أجبته وأنا أنظر لقميصي للتأكد مجدداً بأني لبسته بشكل صحيح وقلت: ما قلته صحيح، فأنا كثيراً ما أنسى تناول الغداء وربما بسبب العمل أيضاً.

أشار للجهة الأخرى وهو يقول: صحيح بذكر ذلك، لقد افتتحتُ مكتبي، هل تأتي معي لرؤيته؟!

وافقت سريعاً؛ فلم يكن لدي ما أفعله حقيقة .

سرت برفقته حتى وصلت لمكتبه، لم أستطع أن أخفي دهشتي مما رأيته.

كيف أصفه؟! كان هادئاً ومتناسقاً والمهم بأنه أثار خيالي سريعاً، فقفزت أياماً للأمام ورأيت نفسي وأنا أجلس على مكتب مثله.

أظهرت تعبيراً بالإعجاب وعلقت قائلة: أهنئك بكل صدق، إنه جميل ومتناسق، أتمنى لك النجاح.

أشار إلي بالجلوس على الكرسي، فجلست ثم سألني: هل تشربين شيئاً "يا أمنه".

هززتُ رأسي بالنفي وما زلت أتفحص المكان بنظراتي بإعجاب وحماس ثم التفت ناحيته فجأة فأعتدل جالساً بارتباك واضح ربما أربكته بالتفاتي ناحيته فجأة بهذه الصورة ومع ذلك قلت: أريد أن أسألك عن شيء مهم.

أظهر إيماءات ترحيب فوضعتُ يدي على مكتبه وبدوت متحمسة للغاية وأنا اسأله: أردتُ أن أسألك عن أكثر شيء مهم بالنسبة للمحامي لكي ينجح؟

سرح بعينيه للأعلى قليلاً وكأنه يفكر ثم أجاب أخيراً: أظن من وجهة نظري بأن أهم شيء يجب أن يقوم به المحامي هو إيمانه ببراءة موكله.

باستغراب سألت: ماذا لو كان الموكل ليس بريئاً من الأساس؟

أجاب بثقة: على المحامي حينها أن يبحث عن كل الأدلة والبراهين التي تؤيد براءته وإلا فلا، إن كان المحامي سينظر لكل موكليه بالشك فهو لن يتقدم خطوة واحدة في عمله.

شعرتُ بالإعجاب مما سمعته للتو ولم استطع إخفاء ذلك فقلت: لقد أعجبني ذلك وأقنعني، سوف لن أنسى أجابتك هذه أبداً.

ثم وقفت مغادرة وقلت بامتنان: شكراً لك؛ لأنك منحتني هذه الفرصة.

وقف هو الآخر على عجل وسأل: إلى أين ؟

أشرت للباب بحماقة وأنا أقول: سأذهب، أريد أن أمر على محل الحاج "حسن".

قال وهو يبعد كرسيه ويتقدم: هذا جيد أنا أيضاً أريد أن أذهب لهما لقد مضى وقت طويل لم أرهما فيه.

أومأت له بالموافقة ثم انطلقت معه.

"إبراهيم" كان من النوع الذي يتحدث بأريحيه ويُعبر سريعاً عما في خاطرة؛ لذا تجدُ نفسك تنخرط في الحديث معه وهذا ما كنت أشعر به.

وما إن انعطفنا وأصبح المحل على مرأى بصري، حتى رأيت ظَهْرَ رجل واقفاً يتحدث معهما.

أدركت على الفور بأنه ظَهْرَ "رادوفان" فنسيت كل شيء ونسيت حتى فعلتي التي اقترفتها قبل ساعة وانطلقت سريعاً نحوه، تاركة "إبراهيم" خلفي دون أن أقول شيئاً، ألم أُقل سابقاً بأن يومي ناقصاً دون رؤيته؟!

التفتَ "رادوفان" فوراً بعد أن رأى العمة "بهيرة " وقد شخصت عيناها وهي تنظر للأمام مشيرة بسبابتها وتصرخ: توقفي عن الركض يا مجنونة متى ستكبرين؟!

لكنّي لم آبه بما سمعته وتوقفتُ ألتقط أنفاسي وحييتهم جميعاً.

كررت "بهيرة" بانزعاج: متى ستكبرين؟! أنتِ تركضين مثل الأطفال ؟!

أيدها الحاج "حسن" بقوله: أنتِ تقلقينا عليك بأفعالك هذه!!

لويت فمي متظاهرة بالامتعاض وقلت بلوم: تقولون هذا؟! وأنا كنتُ أركض شوقاً لأراكم.

علق "رادوفان" دون أن ينظر إلي وهو يلتقط فاكهة بيده: أنا لا أرى في ذلك مشكلة، هي تتصرف بطبيعتها، هذه هي طبيعة آمنه.. ما الخطأ !!

لقد أحسست بأن شفتي ستنشق الآن وأنا أجاهد كتم سعادتي المفرطة التي شعرت بها للتو، لقد بثت كلماته البسيطة تلك الفرح بقلبي وزادت من ثقتي ورغم أنّي شعرتُ بالدوار فجأة إلا أني قلتُ بحماس: صحيح لقد ذهبت لمنزلك لأبحث عنك.

ثم قطعت الكلمة الأخيرة وأنا أتذكر ما فعلته ببيته وبدوت مرتبكة بل كان من الواضح بأنني واقعة في ورطة.

-حقاً!

قالها وهو يضع الفاكهة جانباً ثم نظر ناحيتي وهو يبتسم بود ويسأل: ماذا كنتِ تريدين ؟!

فغرت فمي بحماقة وظللت أحدق فيه وهو يحرك حاجبيه يستحثني على الرد وحينما طال صمتي أعاد سؤاله: ماذا كنتِ تريدين مني حينما ذهبتِ لمنزلي؟!

كان "إبراهيم" قد وصل لحظتها وألقى التحية وصافح الحاج "حسن" فمد له "رادوفان" يده وصافحه هو الآخر.

أما أنا فقد شعرت فجأة بغشيان على بصري، وثقل في ساقيّ ثـــــــــــــم ..

فتحتُ نصف عيني بإجهاد وأنا أشعر بكتفيّ يهتزان بقوة وصوت العمة "بهيرة" يصرخ في أذني:" آمنه" هل أنتِ بخير؟؟

فتحتُ عيني على اتساعهما وإذ بالجميع ينظر ناحيتي بقلق، كنتُ جالسة على الكرسي، فسألتُ بتعجب: ما الذي حدث؟!

ردت "بهيرة ": نحن من يسألك، لقد وقعتِ فجأة!!

أشرت إلى نفسي مستفهمة: أنـــــــا ؟؟!!

أطبق "رادوفان" شفتيه هو عابس ، بينما استرسلت أنا قائلة: آه ، صحيح، نعم، تذكرت، لقد كنتُ واقفة ولكن فجأة شعرت بسواد حول عيني وثقل ثم.. لم أشعر بشيء.

رد "إبراهيم" قائلاً: ما كان عليك أن تركضي هكذا، ربما أُصبتِ بإعياء.

اقترب "رادوفان" مني وسأل: "آمنه"، هل تناولتِ إفطارك؟!

مسحتُ على رأسي بحرج وأنا أنظر للجهة الأخرى وأجيب: ليس بعد.

أطبق فمه وعبس كما المرة الفائتة وقال بعتب: وبذلتِ مجهوداً!! لنذهب إذن لنتناول الإفطار.

لم تكن أذني لتصدق ما سمعته للتو! التفتُ إليه فاغرة فمي بحماقة ورغم أني جاهدتُ نفسي لأبدو طبيعية إلا أنني فشلت فقد كانت ابتسامتي التي أبديتها حد أذني. سرت برفقته لآخر الشارع، اشترى لي وله فطائر البيتا وعصير التوت.

تناولنا إفطارنا في أحد المقاعد بصمت وما إن انتهيت حتى وقف "رادوفان" وقال: لنعد للمنزل.

نهضتُ فوراً ومشيت ورائه بصمت وكنتُ أتساءل في داخلي أين ذهب كل ما عزمت عليه هذا الصباح؟!!

توقف هو فجأة وسأل: صحيح ، ما الذي كنتِ تريدينه مني ؟!

تمنيتُ حينها لو أقع مرة أخرى أو يحدث أي شيء؛ إذ بدوت مرتبكة ودون أن أفكر أجبته بـ "لا شـــــيء".

رفع حاجبيه متسائلاً فأتبعتُ قائلة: أعني .. بأني نسيت.. ذلك لأنني ..لأنني..

ثم حاولتُ أن أجد مبرراً فتابعت بحماقة: لأنّي أنسى سريعاً كما تعلم.

ندت من شفتيه بسمة واسعة ثم استدار وعاد ليتابع طريقة وبدا واضحاً بأنه يكتم ضحكته ثم علق قائلاً: أنتِ لا تعرفين الكذب.

توقفت فجأة وأنا أنظر إليه باستغراب ، فاستدار مستنكراً وقوفي هذا، خفضت رأسي للأسفل وقلت: هذا صحيح، أنا لا أعرف كيف أكذب، في الحقيقة كنتُ أريد أن أعرض عليك أن تتنزه

معي، كنتُ أشعر بالملل وحسب، أما الآن فأنا أشعر برغبة كبيرة فجأة للذهاب "لفاتيم".

أحسست بأن لون وجهه قد تغير قليلاً، لكني مع هذا تابعتُ بإصرار وقلت: هل تأتي برفقتي رجاء؟

ابتسم بفتور ومع هذا كنتُ أشعر بأن ساقيه كانتا تتحركان بثقل وببطء كبير.

انعطفنا أولاً لمحل بيع الزهور، اخترتُ البيضاء كالعادة، أما هو فأختار أزهاراً وردية كما المرة السابقة، تعجبت لذلك فسألته فوراً: لمَ اخترت هذا اللون؟!

أجابني سريعاً: ألا تعلمين؟! فاتيم كانت تحب هذا اللون في الأزهار.

لا أدري لمَاذا لم أظهر أي تعبير وبدوت جامدة، فقد أحسست بشعور غريب يشبه الغيرة، فهو يعرف عن "فاتيم" أكثر مني، وأنا التي افترضت بأنها تحب اللون الأبيض!!

ولكنه سرعان ما انتشلني من ذلك الشعور بسؤاله الذي أربكني: وأنتِ أي لون تفضلين يا ترى؟!

قطبتُ جبيني وأنا أفكر ثم أجبت وأنا أنظر للأزهار بيدي: الأبيض وربما الأحمر وربما الوردي لا أعلم ربما جميع الألوان.

ابتسم برقة وتابع طريقة وهو يقول: لقد ظننت بأن اللون البرتقالي هو ما تفضلينه.

لحقته وسألت مستفهمة: غريب!! لم التفت لهذا اللون يوماً؟!

مط شفتيه وهو يجيب بكلمة "هذا طبيعي".

فسألت بفضول: ما الذي تعنيه بطبيعي؟

وقتها كنّا قد وصلنا إلى المكان الذي قصدناه فأجاب: طبيعي أن لا نلتفت لكل ما يشبهنا، أنتِ تُشبهين الشمس في لونها.

ثم تقدم واضعاً الأزهار على قبر "فاتيم" وتركني واقفة في حيرة أكرر ما قاله للتو لأستوعبه، كان ينظر للشاهد ويبتسم بشحوب.

أحسستُ فجأة بأن أنفاسي تضيق وتختنق، دققت النظر في الأزهار التي أحملها وشعرت بأن عينيّ قد غرقتا في لونها حتى استحالت إلى بياض.

"فاتيم" ترتدي قميصاً وردي اللون، وصوت صراخها واستنجادها: أمـــــــــــــاه ..أمــــــاه ..آمنه ..

وذاك الجندي يسحبها من شعرها، أمي تضمني إليها بشدة وتنتحب وتصرخ: قاتلك الله ..قاتلك الله ..

ثم توارت بعدها "فاتيم".

"آمنــــــه ... آمنـــــــــــه ؟" هل أنتِ بخير ؟ هل تشعرين بالدوار مجدداً؟

التفتُ إليه وقد بدت ملامحي شاحبة كالجثث، حركتُ رأسي بقوة نافية وقلت: سيد "رادو" أختي لم تمت في "سربرنيشتا" هل هذا صحيح ؟! لقد تذكرتُ بأن جندياً قيدها وجرها ..

ارتجفت أصابعي وأنا أكرر: لم تمتُ لم تمتُ في "سربرنيتشا" كما يقول الجميع!

نظرت إليه باستجداء وتابعت: هل أنا محقة؟

لكنّه وجم ولم يجب وغمره الحزن وبدا في عينيه شيء يلتمع.

الفصل السابع :الهطول.

تلك الذكريات التي تهطل فجأة؛ مجددة في أعماقنا وجعاً،

حتماً هي لا تشبه المطر.

بعد أن تمكنت والحمد لله من اجتياز الامتحانات لم يكن شيء يؤرقني مثل تلك الذكرى تحديداً .

لقد أخبرني الجميع هنا بأن " فاتيم" قُتلت مع أمي في "سربرنيتشا" ذلك اليوم، لكن تلك الصور التي تغزو ذاكرتي تنفي هذا، تحيرني، تربكني !!

للحد الذي بتُ أرفض فيه الخروج عدا للعمل فقط، وقد لاحظ الجميع شرود ذهني ولمحة الاكتئاب التي طبعت على ملامحي.

وذات يوم قامت " أرجينا " بإعداد العشاء ودعت "رادوفان"، كنتُ حينها في غرفتي، وقفتُ أمام المرآة ولففت الحجاب ثم أدخلت السوار الأزرق بمعصمي.

ودخلتُ عليهما بابتسامة شاحبة ومع هذا ابتسما بحبور، ألقيتُ نظرة سريعة على السفرة، كانت عامرة بأنواع الفطائر البيتا بورك والسير نستا والكروم بير روشا*

تعجبت مستفهمة: لمَ كل هذا أمي ؟!

اقتربت مني وأجلستني وهي تقول: هذا لأنك أهملتِ وجباتك الغذائية كثيراً.

ثم اتجهت نحو الثلاجة وأخرجت منها كعكة كبيرة ووضعتها أمامي وهي تقول: مبارك نجاحك يا "آمنه" هذا احتفال بسيط.

---

*: أنواع لفطائر مشهورة في البوسنة والهرسك .

للحظات ظلت ملامحي جامدة، ثم أخيراً ابتسمت بخجل وسعادة للحد الذي شعرت معه بأن دموعي قد أوشكت على الوقوع.

فخبأت عيني بكفيّ وأنا أضحك، وبذات الوقت كنتُ أشعر بدموعي وهي تنحدر على وجنتيّ.

قرب "رادوفان" السكين مني وقال: هيا قطعي الكعك، لقد صنعته "أرجينا" خصيصاً لك.

أشحت وجهي ومسحت دموعي بارتباك ثم تناولت السكين وأنا أنظر "لأرجينا" بامتنان، فقالت: سأعد لك كعكة أكبر منها حال تخرجك.

ابتسمت بحرج وأنا أرد: ما الذي تقولينه أمي!

ثم قطعتُ الكعك وسط تصفيق وهتاف منهما يقول: "مبارك لمحاميتنا آمنه "

وزعتُها على الأطباق ثم التفتُ نحو "أرجينا" وأخذتُ أراقبها وهي تقطع الكعك بالمعلقة وتذوقها .. ثـــــــــــــــم

عانقتها بقوة، كما لم أعانقها من قبل.

كانت دموعي تنهمر سريعاً؛ بل كنتُ أشهق من حين لآخر، محاولة كتم بكائي لكني لم أستطع، ربتت على ظهري وهي تقول بلطف: "آمنه" يكفي هذا.. لقد فعلنا كل ذلك لإسعادك ..لا أريد أن أرى دموعك الآن!

أومأت موافقة ومسحت دموعي ثم نظرتُ إليها وقلتُ بامتنان: شكراً لك أمي "أرجينا" على كل ما فعلته وقدمته من أجلي.

ثم التفت ناحية "رادوفان" وغاشية من الدموع تُحيل رؤيتي وقلت: شكراً لك سيد "رادو" لمشاعرك الطيبة ولكل ما فعلته من أجلي.

ابتسم بحرج وتناول قطعة وهو يقول: ألن نأكل؟ أنا جائع حقاً.

ربتت "أرجينا" على كتفي وهي تشير لي بالجلوس؛ فجلست وبدأنا بتناول الفطائر والكعك وشرب العصير في جو من الفرح والضحك.

حينما أفكر في تلك الليلة بالذات، أشعر بغصة تؤرقني، ليت الأمور بقيت كما هي عليه آنذاك.

ليت كل شيء توقف حينها وظلت صورة "رادوفان" و"أرجينا" وهما يضحكان من قلبيهما كما هي.

ليت كل شيء توقف، وبقي ثلاثتنا كالعائلة التي لا يمكن إلا أن تهبك الدفء.

بعد أن انتهيت من تناول الطعام، طرأت في ذهني فكرة أن التقط صوره جماعية لثلاثتنا، أخبرتهما بذلك فتحمسا؛ لذا في تلك اللحظة بالذات وهي التي أحدثت فرقاً في حياتي .

نهضت سريعاً، وفجأة شعرتُ بغشيان في عيني وثقل في رأسي وخفة في ساقيّ.

شعرتُ بجسدي وهو يتهاوى ..ثـــــــــــم ..

كانت أصوات متقطعة تصلني .

شعرتُ بكتفيّ تهتزان وأرجينا تصرخ بقلق: " آمنه، هل أنت بخير؟"

بالكاد فتحتُ عينيّ بإعياء ثم أطبقتهما إلى حيث السواد الذي كنتُ كثيراً ما أبحث عنه وأريد معرفته بشدة، وشُرخ ذاك الجدار من البياض أخيراً.

شعرتُ بجسدي وهو محمول بين ذراعين، فتحتُ عينيّ لأرى ذقن "رادوفان".

دقات قلبه المضطرب حينئذ تشبه دقاته ذلك اليوم، وصوت أنفاسه العالية.

أسدلت جفني ثم شعرتُ بكفيّ " أرجينا" وهي تضربُ على خديّ وتصرخ: "آمنه.. أفيقي آمنه " وصوت آخر يبتعد ويقول: "هل نحملها للمستشفى ؟"

وذاتُ الصوت سمعته يقول: أرجوك أعتني بها، أخبر "أرجينا" بأن هذه وصية صديقها "رادو" ربما لن أتمكن من العودة "

كان البياض يتساقط شيئاً فشيئاً، وظهرت بسمته المعذبة والدموع في عينيه وهو يراقبني وأنا ابتعد ثم رأيته وهو يتهاوى على الأرض.

يد "فاتيم" امتدت تستغيث لكنّها جُرت مقيدة إلى باص حملها إلى حيث لم أرها بعدها.

وساحة المعتقل بجوار "سربرنيتشا"، انهارت كل جدرانه فتكشف كل شيء.

ذلك المجرم أخرج من جيبه عود حلوى وأعطاني إياه وبعدها

كل شيء غدا لونه أحمر وطعمه مر وبشع.

الدماء، الصراخ، وصوت طلقاتِ النار، وصوت السكين الذي يمر فوق الرقاب؛ لبترها. وأمي التي تحتضنني بفزع وتنتحب.

ليت ذاكرتي ظلت من بياض يحيد معها السواد.

فتحتُ عيني أخيراً؛ لأرى أمامي "أرجينا" و "رادوفان " بملامح يشوبها القلق.

شخصت عيناي بذهول ونهضت معتدلة، أحطت رأسي بيديّ، وارتجفت شفتاي وقلت بهلع يوازي تكرار المشاهد المروعة في خيالي: لقد تذكرت.

كررتها مؤكدة: لقد تذكرت.

أمسكت أرجينا بمعصمي وسألت : " آمنه " ما الذي تذكرته ؟!

صرختُ حينها وأنا أهز رأسي بوجع وقلت: كل شيء .. كل شيء ، "فاتيم" كما قلتُ لم تقتل مع أمي، "فاتيم" أُخذت منّا ويبدو بأنها ماتت قبل ذلك.

ثم انهرتُ بعدها وظللت أبكي كما لم أبكِ من قبل ورغم أنهما حاولا تهدئتي إلا أنهما عجزا في النهاية، وقررا تركي وشأني.

لا أعلم كيف غفوت تلك الليلة، فما تذكرته كان بشعاً ومروعاً!!

لقد شعرتُ بكراهية فظيعة لكل جنرالات الحرب لحد الحقد والمقت، لقد أدركتُ أخيراً كيف يكون النسيان مطلباً وكيف يصبح بشعاً أيضاً.

أدركت حينها لمَ كانت " أرجينا " ترفض الإجابة عن أسئلتي ولمَ كان "رادوفان" يكره ذكر تلك الأيام.

لكن مازال هنالك شيئاً ما ناقصاً، إن قُتلت "فاتيم" في معسكر آخر فلماذا أحضر "رادوفان" جثمانها لهنا؟!

استيقظت في صباح اليوم التالي وأنا أشعر بكف "أرجينا" وهي تعاين جبيني.

فتحتُ عينيّ ونطقت: أمـــــــــــي؟

ثم نهضتُ واعتدلت فابتسمتْ وقالت: "آمنه " لقد قلقتُ عليك البارحة كثيراً، الحمد لله أنك بخير اليوم.

أومأت موافقة وقلتُ بندم: لقد أفسدت الحفلة في النهاية.

ربتت على رأسي بحنان وهي تقول: لا بأس حبيبتي، لا بأس. لكني لن أسمح لك بعد ذلك بإهمال نفسك لهذا الحد، سأحشو فمك بالطعام كلما غدوت ورحت.

ضحكت بخفة وأنا خافضة عينيّ بخجل ثم قلت: لقد فهمت الآن يا " أرجينا" لمَ كنتِ لا تجيبين وكنتِ تكرهين ذكر تلك السيرة ، لقد كان ما تذكرته أبشع مما كل ما قيل وروي.

قبل أن أنهي كلمتي الأخيرة وضعت "أرجينا" كفها على فمي وهي تشير لي بالصمت وتقول: يكفي، لا داعي لذكر ذلك الآن،

لقد انتهت تلك المرحلة بكل مآسيها وعلينا الآن أن نبني، لقد وهبك الله أماً ترعاك، أفلا تشكرينه على هذا؟!أم أنك لا ترينني كذلك ؟!

ثم عانقتني بلطف فشددتُ عليها وأنا أقول بتأثر: بلى ..أنتِ أمي وصديقتي الوحيدة.

ربتت على كتفي وهي تقول: لقد حضرتُ لك الفطور، سأذهب لعملي الآن، لا تغسلي الأطباق، أريد أن أرى إن أكلته كله أم أبقيتِ شيئاً منه وإلا سأوبخك. فهمتِ ؟!

ثم وقفت مغادرة وهي تلوح لي بابتسامتها المعهودة المشرقة؛ لطالما كنتُ أفكر امرأة بجمال "أرجينا" ما الذي يجعلها لم تتزوج حتى الآن وتحظى بحقها في الأمومة؟!

هل هو إخلاصاً لزوجها المتوفى؟!

أم أنها تميل بمشاعرها ناحية .....

تنفست بعمق ثم نهضت من على السرير وما إن عبرتُ من أمام المرآة حتى عدت للوراء سريعاً لألقي نظرة على شعري الذي كانت كل خصلة منه على خصام مع الأخرى، أطلقتُ ضحكة مجنونة وفرجتُ أصابعي فيه فبعثرته أكثر وأحسست بعدها بالرضا التام ثم اتجهت نحو المطبخ وتناولت إفطاري.

وفجأة سمعت صوت قرع الباب، اتجهت ناحيته وسمعت صوت "رادوفان" ينادي باسمي.

نظرت للمرآة الصغيرة في الصالة فهالني مظهري فأجبت بارتباك عليه وقلت: أنا هنا.. دقيقة فقط .

اندفعت سريعاً لغرفتي، ولممت بعثرة شعري على عجل ثم لففت حجابي، وأخيراً تنفست الصعداء وأنا أديرُ الباب وكأنّي قد خرجت من معركة للتو.

نظر إلي وعلى شفتيه ابتسامة ودودة وقال: أرى أنك بخير اليوم؟

أومأت موافقة وشعرت بحرارة تسري في أوردتي وترتكز كلها في وجهي فاحمر بخجل لم أستطع أن أخفيه، ويبدو بأنه قد شعر بذلك فقال:

-إذن ..

ثم لوح بيده وهم بالمغادرة وهو يقول: سأذهب الآن للمكتبة، أراك مساءاً.

ثم استدار ولكنه لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة؛ لأنني كنت قد مددتُ يدي دون أن أدرك وجذبته من طرف قميصه، أدار رأسه مستنكراً أولاً، ثم استدار بكامل جسده وسأل باستغراب: ماذا، هل أردتِ قول شيء ما؟

لكني لم أجبه وظللتُ أحدق فيه بحماقة وأنا فاغرة فمي عن لا شيء، فبدا القلق واضحاً على وجهه وهو يسأل: هل أنتِ على ما يرام ؟هل تشعرين بشيء ما ؟!

أخيراً حركت فمي وتحدث قائلة بامتنان: أردت فقط، أن أشكرك. شكراً لك لأنك أنقذتني ولأنك اعتنيت بي كل ذلك الوقت مع "أرجينا" شكراً لك.

لم يعلق بشيء وخفض عينيه للأرض للحظة ثم رفع رأسه وابتسم قبل أن يستدير سريعاً، إلا أن تلك البسمة التي رأيتها على شفتيه حينئذ تختلف عن كل ما رأيته سابقاً لقد بدت وكأنها جريحة بل مسفوحة!!

بعد ذلك خرجتُ لاستنشاق بعض الهواء، وشعرتُ للمرة الأولى بأني أسير في "سراييفو" التي كنتُ أسير فيها وأنا في الخامسة من عمري.

بدا وأن كل شيء غدا مختلفاً، وكأن كل شيء أصبح دافئاً وطاهراً فجأة.

لم يكن مكان البيت الذي سكنت فيه مجهولاً الآن بالنسبة لي.

لقد تذكرت مكانه بالضبط، لم يكن يبعد كثيراً عن الحي الذي أقطن فيه الآن.

اتجهتُ لأحدى الحدائق التي كنتُ أزورها برفقة "فاتيم" والتي كان يأتي إليها "رادوفان" أيضاً.

جلستُ على أحد المقاعد وأنا أشاهد الأطفال وهم يلعبون، أردت أن أقفز أنا الأخرى معهم وأن أركض، وأن أقطف من الأزهار وأنثرها على المارين كما كنتُ أفعل دوماً وتوبخني "فاتيم" بأن الأزهار تستحق أن تعيش!!

رفعتُ عينيّ للسماء عند ذات الفكرة وهمست: لقد كنتِ كالزهرة يا "فاتيم" لكنّهم لم يهبوك الفرصة لتزهرين!!

حينها وقف أحدهم أمامي بمحاذاة الشمس لم أتبين ملامحه إلا بعد أن انحنى قليلاً وهو يقدم لي كوباً من القهوة البوسنية ويقول: لقد شاهدتك عندما أتيتِ لهنا.

تناولتُ الكوب منه وقلت بامتنان: شكراً لك " إبراهيم ".

جلس بجانبي وقال: لم أرك منذ فترة، كيف تسير أمورك الدراسية؟

أجبته سريعاً: بأحسن ما يكون والحمد لله، أفكر بأن أدرس بالصيف أيضاً؛ لأتخرج سريعاً.

للحظات خيم فيها الصمت كنتُ أرتشف خلالها من القهوة وأنا أحدق في الأطفال حولي بشغف.

إذ قال "إبراهيم" فجأة: "آمنه" هل تفكرين بالزواج الآن ؟!

الفصل الثامن: الرجل الآخر.

لا حدود للمفاجآت!!

في أحد أيام الصيف، خرجتُ من المنزل باكراً متجهة للمكتبة، لم أشاهد يومها "رادوفان" كعادته يجلس بالحديقة ويشرب قهوته؛ فظننتُ بأنه ربما قد سبقني إليها.

فأسرعت راكضة، ولكن ما إن وصلت، حتى فُوجئت بعدم وجوده، بل لقد مضت ساعة على بدء الدوام ولم يأتِ!! شعرتُ حينها بالقلق، فليس من عادته التأخر!

مضت ساعات الدوام ثقيلة وبطيئة على غير المعتاد وعند الساعة الخامسة، خرجتُ سريعاً باتجاه منزله، وما إن وقفت أمامه، حتى سمعت صوتَ باب منزلي يُفتح وتظهر من خلفه "أرجينا" وما إن رأتني حتى قالت: "آمنه " لقد عدتِ؟! هذا جيد.

اقتربتْ مني وبيدها تحمل سلة طعام، ناولتني إياها وهي تقول: اسمعي هذا حساء أعددته "لرادو" فهو مريض، أعطيه إياه، لدي عمل مسائي اليوم.

تناولته سريعاً من يدها وأنا أحرك رأسي ببلاهة موافقة ثم سألت: كيف هي صحته ؟

عدلت حقيبتها وهي تستدير وتجيب: أنه مصاب بالحمى.

ثم عادت لتلتفت وكأنها تذكرت شيئاً فجأة وقالت بلهجة موبخه أكثر منها محذرة: آمنه، التزمي الأدب .. ما من داعي لأن تعبثي ببيته.

لم استطع أن أرد أو أدافع عن نفسي مع نظراتها تلك واكتفيت ببسمة بلهاء؛ فيبدو بأنها كانت تلاحظ بأنّي أراقبه وأعبث بأغراضه. بدأت أشك بأن كلمة فضولية مطبوعة على جبيني.

لكنّي لستُ لحاجة لهذا الآن، لقد كنتُ أفعل ذلك لأني كنتُ أريد التذكر وحسب وقد تذكرت كل شيء الآن.

لكن ما حدث هو أني قد محوت الفكرة الأخيرة تماماً حال قرعي الباب ودخولي لمنزله، فعلى ما يبدو بأن هذه قد أصبحت عادة لدي.

كان الإعياء واضحاً على ملامح وجهه، وكانت خصلات شعره الأمامي مفروشة على جبهته، وعيناه أصبحتا أكثر برودة من قبل.

لحقته للمطبخ، جلس وهو يتنفس بصعوبة، عبر عن شكره بقوله: لا أعرف كيف أشكركِ أنتِ و"أرجينا" ؟

هززت رأسي نافية وأنا أصب له من الحساء في الوعاء وأقول: المهم أن تتعافى.

تناول الملعقة وأخذ يحتسي منه ببطء، أما أنا فكنت مستمتعة وأنا أراقبه في صمت.

لقد كان مظهره يبدو كطفل وديع مما جعلني أبتسم بود.

وما إن أنهى طعامه حتى سعل فجأة، سألته بقلق: هل تناولت دوائك ؟

هز رأسه نافياً وهو ما يزال يسعل، فنهضت على الفور وقلت: أين هو سأحضره لك؟

أشار لغرفة نومه، فاتجهت سريعاً ودخلتها، وما إن وقفتُ عند السرير ونظرتُ للمكتب أمامه حتى فوجئت بما رأيته، لقد كان يوجد بجوار سريره أقراص منومه و..!!

صوره أحادية له ولفاتيم؟!! وخلفهما يظهر برج الساعة، كانت "فاتيم" تبتسم وهي تنظر للمصور بمرح أما هو فلم يكن يظهر سوى نصف وجهه؛ لأنه كان ينظر إليها مبتسماً بانشراح لم أره عليه من قبل قط!!

رفعتُ الصورة لأنظر إليها جيداُ فشعرت بحركة خلفي، استدرت بوجل.

فإذ به يقف عند الباب يلتقط أنفاسه بصعوبة، وقد وجه أنظاره ناحية مكتبه بوجل واضح.

بارتباك أعدت الصورة لمكانها، فعبس وهو يتقدم نحوي، أدركتُ حينها بأنّي ارتكبت خطئاً فظيعاً وبأنني رأيت شيئاً لم يكن علي رؤيته.

وما إن اقترب حتى قذف بالحبوب المنومة داخل الدرج في عصبية واضحة ثم قلب الصورة.

صحيح بأنّي كنتُ سأفعل هذا حتماً لو لم يكن موجود، بل ربما تماديت أكثر، لكن أن يُلقى عليك القبض بالجرم المشهود فهذا إحساس مربك وبشع.

شعرتُ بأن دمائي قد تجمعت كلها على خديّ فخفضت رأسي بخجل واعتذرت: آسفة ما كان علي رؤيتها، كما وأنّي لم أجد أقراص السعال!!

ومع هذا بدا وكأنه تجاهل ما قلته تماماً أو أنه أراد أن لا يسمع أو أنه خشي أن يقودني فضولي لسؤاله عما رأيته!!

أخرج من الدرج علبة دواء السعال ثم أخرج الشريط ولكنه كان خاوياً.

ألقاه جانباً بانزعاج ثم تقدم نحو الباب، أما أنا فظللتُ واقفة مكاني أشعر بأن ساقيّ قد تجمدتا!!

دارت عينيّ للخلف قليلاً فرأيت دفتره البني موضوع على السرير، فانتفضت في الحال لتذكري ما فعلته به ذلك اليوم!! ويبدو بأنه قد انتبه على نظراتي المضطربة تلك، لذلك فاجأني بقوله: إلى أي حد قرأتِ فيه يا " آمنه"؟؟

شخصتْ عيناي في ذهول، لقد شعرتُ حينها بأن فأساً أُسقط على رأسي، لقد أصبحت مدانة الآن بعد مضي كل ذلك الوقت، وسؤاله لي بتلك الطريقة !! يثبت بأنه متأكد مئة بالمائة!

طأطأت رأسي باستحياء وأجبت بصوت خفيض: أسطر قليلة وحسب.

أومأ برأسه فقط ثم خرج من الغرفة، فتنفست الصعداء، ثم لحقته إلى حيث المطبخ وجلست بحرج في صمت ولكنه بدا يسعل بشدة فجأة فنهضتُ فزعة وقلت: ماذا عن الدواء؟! سأذهب وأشتري لك واحداً مثله.

أوقفني بقوله: كلا، كلا، أحتاج أن أذهب إلى الطبيب، هذا الدواء لن يفيد.

اقتربت منه وملت نحوه وقلت: هل ستذهب الآن ؟! سآتي برفقتك.

هز رأسه نافياً وما أن رفع عينيه والتقت بعيني مباشرة حتى جمدت ملامحه وتوقف سعاله، وبدا وكأنه يفكر بشيء ما!
أحسست بالحرج فطرفت عيني فأشاح بوجهه وعاد ليسعل ثم قال معترضاً: سأذهب وحدي.

ثم وقف واستدار ناحية الباب ولكني أوقفته، فعاد لينظر إلي، كنت أضرب سبابتي ببعض كما الأطفال وقلت بصوت محرج: أريد أن أكفر عن خطئي؛ لذا دعني أرافقك.

أومأ موافقاً دون أن يبتسم ثم خرج وتبعته، سرنا سويّا وعبرنا الشارع ثم صعدنا الترام وبعد طول صمت ضممت خلالها كفيّ كثيراً قلت بحرج: ربما لا يحق لي أن أسألك عن هذا لكن .. كيف عرفت بأنّي قد قرأت من دفترك ذاك؟

رغم إعيائه ابتسم وأجابني: لم يكن في مكانه كما تركته، أضف إلى أنكِ دخلت البيت دون أن تخلعي حذائك فبقي أثره على البلاط واضحاً، ولم تكن أرجينا لتفعل هذا أكيد.

حسرتُ عينيّ بكفيّ سريعاً وأنا أدير وجهي عنه بخجل شديد.

فوق خطئي بقراءتها دخلتُ منزله بحذائي!! أي حماقة تلك التي اقترفتها أنا؟!

وللمرة الثانية يمسك "رادوفان" بطرف كم قميصي ويزيح كفيّ عن عينيّ؛ ليظهر من خلفها مبتسماً بود وهو يقول: إنها مجرد خربشة منوعة أكتبها من قبيل الملل ليس إلا.

لا أدري لمَ شعرت حينها بالفوضى والخجل وبخفقان قلبي وأنا أنظر إليه، لم آبه بتعليقه ولم أفكر به، كنتُ أفكر أكثر بالسبب الذي جعله للمرة الثانية يزيح كفي عن عيني؟!

شعر بذلك فنفض يده بارتباك ولفه الخجل هو الآخر وأدار رأسه للجهة الأخرى وظللنا هكذا حتى وصلنا للمستشفى ودخل عند الطبيب ليفحصه.

بعدها اتجهنا عند الصيدلانية لاستلام الدواء، مد لها الورقة، ثم جلس في مقاعد الانتظار التي كانت أمامي.

وكانت الطبيبة الصيدلانية تنادي بالاسم على المرضى، أما أنا فقد كنت أتابع كل من وقف بملل واضح، حتى نادت قائلة : السيد "علي أندريتش" ؟

ظللت للحظات أعبث بأصابع قدمي وأنا أهزها بانتظار أن يقف "علي" هذا الذي تأخر وفجأة وقف "رادوفان"!!

وألقى نظرة سريعة ناحيتي وبدت على محياه بسمة واهنة، جعلتني أشعر بالحيرة حيالها!!

ثم اتجه لاستلام دوائه!!

الفصل التاسع: الإدانـــــــة!!

بعض الحقائق من الخير لها أن تبقى محصورة داخل ذاكرة من العدم.

لقد صدقت كل شكوكي التي تشكلت في ذهني بداية عن "رادوفان" وأصبحت واضحة كوضوح الشمس.

لم أسأل "رادوفان" مطلقاً عن ذلك الاسم ولم أحدثه بشأنه أبداً ولم أسأله عن السبب، وسبب إخفائه للأمر كل هذه المدة، رغم أن فضولي يكاد يقتلني، ولم أخبر "أرجينا" أيضاً لسبب واحد؛ فلا بد بأنها تعرف ذلك مسبقاً ولاشك، فعلاقتها معه هي أقوى من علاقتي معه.

وإن كان هو يخبرها بكل شيء طواعية، فأنا أفرض عليه ذلك بفضولي.

في أحد الأيام وبينما أنا عائدة من الجامعة وكان يوافق يوم إجازة لي من العمل، عرجت على محل الحاج "حسن" والعمة "بهيرة" فهذان الزوجان كانا أحد أسباب تفاؤلي وسعادتي

وكنتُ كثيراً ما أشعر بالراحة في الحديث معهما رغم شعوري بالممل منهما في بعض الأحيان خاصة أن تحدثا عن الساحة السياسية.

حييتهما، ثم وقفت أساعد العمة "بهيرة" في رصف الفاكهة، لم تستطع العمة "بهيرة " أن تخفي دهشتها فعلقت: غريب "آمنه " أنتِ تساعديني في رصف الفاكهة ؟!!

-ما الغريب يا عمة ؟!

-لقد تغيرت حقاً .. كنتِ كسولة جداً قبل الآن!!

لويت فمي ثم شمرت ساعداي وأنا أرد عليها بتباهي: الجامعة جعلتني أكثر نشاطاً يا عمه.

أعادت بلهجة ساخرة: الجامعة، جعلتك نشيطة!!

ثم وكزتني على جانبي وهي تقول: من الذي غيرك في الجامعة؟!

ألقيتُ عليها نظرة مستغربة وأنا أنكر قائلة: ما هذا يا عمتي، إلام تلمحين؟! أنتِ تفسدينني هكذا، لا شيء مما تفكرين به مطلقاً.

ربتت على كفي الذي أمسك الفاكهة به ثم ضغطت عليه وقالت: أريد أن أراك عروساً وزوجة، لا أريدك أن تتأخري عن ذلك كما فعلت "فاتيم"، لقد رفضت "صالح" ابني، ربما لو وافقت لظلت هنا في سراييفو ولم تمت، عموماً ذلك الولد العاصي لم يكن يستحقها فعلاً، انظري إليه لقد مضت أشهر ولم يسأل فيها عنّا. هل تجارته تلهيه لهذا الحد؟!!

شعرتُ بحرج بالغ واكتفيتُ بأن هززت رأسي بالموافقة دون أن أعلق بشيء.

بعد ذلك استأذنت بالمغادرة وما إن ابتعدت قليلاً ووصلتُ عند المنعطف الذي يؤدي لمنزلي حتى قابلت شخصاً لم أكن مستعدة أبداً لمقابلته، لكن لا مهرب الآن، بدا لي للحظة وكأنه كان حاضر بيننا وسمع ما قالته العمة "بهيرة".

ألقى علي السلام فرددته بحرج رغم أنّي حاولت أن أتصرف بطبيعتي.

أشار للجهة الأخرى من الشارع وهو يقول: "هنالك محل يبيع الكعك بطرق مبتكرة ولذيذة، أريد تجربته معك هل ترافقني ؟!

كنتُ أنوي الرفض ولكنّي أعلم تماماً سر دعوته؛ فهو ينتظر مني جواباً عن سؤاله الأخير، رغم أنّي لم أفكر بجدية في الموضوع؛ فقد حدثت أشياء كثيرة جعلتني أنسى ذلك تماماً!!

وليس من اللائق إخباره بذلك حتماً، وعلي إيجاد رداً مناسباً، وهذا مالا أتقنه أنا.

تبعته ولم أكن أعرف بأن المحل بعيداً هكذا، حيث كان بقرابة مركز "Bb"التجاري.

وما إن وصلنا وجلسنا فيه حتى شعرتُ بأنه فعلاً يستحق هذا العناء، فقد كان فخماً وأنيقاً، سأعترف ربما هذه المرة الأولى التي أجلس فيها في مكان فخماً هكذا.

طلب لنا بعض الحلوى والقهوة.

كانت الحلوى عبارة عن كور من الأيس كريم والبسكويت لم أذق مثلها من قبل؛ لذلك انغمست في تناولها لدرجة نسيت معها أن أفكر برد مناسب.

حتى تحدث أخيراً: "آمنه" أنا لم أتلقى جواباً منكِ المرة الفائتة، لازلت انتظر ردك.

شعرتُ باللقمة تغص في حلقي، ابتلعتها وأنا أشعر بالخجل؛ فقد بدوت كنهمة بالفعل.

ثم أدرتُ رأسي ورحت أنظر بشكل ملفت في العابرين، كنتُ أحاول أن أملأ نفسي بالثقة ثم استدرت إليه وقلت: الحقيقة يا "إبراهيم" هو أنني لا أفكر بهذا الموضوع مطلقاً حتى انتهي من دراستي.

صمت ولم يعلق، خفض رأسه وارتشف من قهوته وأنا أنظر إليه وابتلع ريقي بصعوبة وإذ به يقول: لا بأس، لم يتبق لك الكثير، لقد أخبرتك عن ذلك سابقاً: بأنني سأنتظرك حتى تنتهين ولكن يبدو بأنك قد نسيت !!

فغرتُ فمي لوهلة ثم شعرت بشيء من الحلوى ينزلق في حلقي مجدداً؛ فسعلت بحماقة وظللت كذلك وهو يراقبني بصمت.

ثم اعتدلت وقلتُ بتلعثم: صحيح هذا صحيح، لقد أخبرتني بالفعل.

لم أكن أفهم يوماً معنى الورطة الحقيقة غير الآن، شعرت بأني محاصرة تماماً.

ما الذي سأقوله له الآن؟ هل أخبره بأنني لا أرى فيه سوى جار وزميل ؟! لم أفكر بهذا من قبل حقاً ؟! أنا لم أجد الوقت لأشغل رأسي بأمور من هذا القبيل؟!

تنفستُ بعمق استجمعت فيها شجاعتي ثم أجبت أخيراً: الحقيقة أنا لا أفكر في هذا الموضوع الآن مطلقاً.

امتعض وجهه قليلاً فاستدركت قائلة: ولكن أعدك بأنّي سأفكر بذلك في وقت لاحق.

بهدوء مد ملعقته وأخذ يعبث بطبق الحلوى أمامه للحظات ثم سأل: هل حقاً ستفعلين ذلك؟!

قطبتُ حاجبيّ باستغراب مستفهمة فأتبع: أنتِ لم تفكري في ذلك رغم أنك وعدتي بذلك سابقاً! هل أقول بأن ذلك بسبب ..

خفض عينيه وقلبَ الحلوى ثم عاد لينظر إلي وأتبع: جاركم الصربي ذاك.

تراقص حاجبايّ باستغراب وسألت: ما الذي تعنيه، ما شأن "رادوفان" بذلك؟!

عبس قليلاً ثم قال: وأنتِ تلفظين اسمه هكذا بكل بساطة !!

شعرتُ حينها بالغضب يستّعر بأعماقي؛ فعلقت بصوت حاد: ما الذي تعنيه من كل ذلك، أوضح رجاء ؟!

أطلق من فمه كلمات كالرصاص قائلاً: من الواضح بأنكَ تحبينه، هل أنتِ حقاً جادة بذلك؟! تحبين رجل يكبرك بكل تلك السنوات!! والأدهى من ذلك..

قاطعته بغضب واضح : مهلاً، الأمر ليس كما تعتقد مطلقاً... أنا أعتبره جار وصديق ولم أرَ منه ما يسوء، ومع هذا أراك تقذفه في حديثك بالسوء!!

تراجع للخلف ثم زفر بقوة وقال: هل حقاً ينسى الإنسان بهذه السرعة ؟! كم عام مضى على تلك الحرب؟! أحد عشر عاماً!! هل هذه السنوات كفيلة بدفن كل الأخطاء؟ هل كان ما يقولونه لنا صحيحاً: نحن مجتمع متعدد الأعراق!!صربي، كرواتي، بوشناق

كلنا سواسية وأخوة، لا انحياز، لا عنصرية! أين ذهب كل ذلك وقت الحرب؟؟!!أين محي واختفى؟؟ ألم يجند صرب البوسنة مع الجيش اليوغسلافي آنذاك لضربنا؟!

قاطعته مجدداً بلهجة أكثر حدة وقلت: وهل تريد مني الآن بعد كل ما طرحته بشأن الحرب، أن أكرهه أو أن أعامله بفظاظة فقط لهذا السبب ؟؟! وهو يعاملني بكل طيب وود !! لا يهم ما الذي حدث في الماضي.

أسند رأسه على يديه فوق الطاولة وقال: حقـــــاً، لا يُهم هذا ؟!

صمتُ ولم أجبه وظللت أنظر إليه بحدة فأتبع هو: كم أشعر بالغضب وأنا أراك تسيرين بجواره! وتضحكين وتسحبينه بحماقة من كم قميصه كطفلة، وتقولين لا يهم!! ما لا تعرفينه بأن ذلك الرجل شارك في الحرب، وجُند في سنتها الأخيرة رغم تحذيرات الحكومة، ورفع سلاحه ضدنا!! وحده يعلم عدد الذين قتلهم بسلاحه، وأنتِ تقولين لا يهم!!

ألم تسألي عن سبب سجنه سابقاً ؟! وفوق ذلك تعاملينه بكل لطف وود متناسية كل هذا؟!

لقد غدر بأختك سابقاً وسيغدر بك أنتِ الأخرى.

عند كلماته الأخيرة شعرت بالدماء تتجمع في وجهي وارتجفت شفتيّ بوجل وعلى الفور تذكرت كلماته ذلك اليوم بشأن اتهامه!! فقلت مستفهمة: ما الذي تعنيه بأنه غدر بأختي سابقاً؟؟ أي نوع من الغدر تقصد ؟!

تراجع للوراء وهو يتأفف باستياء ثم أجاب: ألم تسألي نفسك لماذا قبرُ أختكِ هنا وليس في "سربرنيتشا" ؟!

اتسعت عيناه وأتم: هذا لأنه قتلها بسلاحه.

وقفتُ منتفضة، ثبتُ يديّ على الطاولة وصرخت بانفعال: كـــــذب.

تلفتَ حوله بحرج وأجاب: كذب!! ألم تسألي نفسك متى تم العثور على مقابر "سربرنيتشا" الجماعية؟ وأختك مدفونة هنا قبلاً!! ألم تفكري لماذا وكيف عرف قبرها؟! الاجابة واضحة لأنه قتلها ودفنها ثم نقل جثمانها.

ضربت على الطاولة بانهيار لإيقافه؛ فما عدت قادرة على سماع المزيد وصرخت بانفعال أكبر: تكـــــــذب ولا تملك أي دليل.

اعتدل في جلسته؛ ليهدأ نفسه ثم رد ببرود: أنا لا أكذب يا "آمنه" هذه هي الحقيقة التي أخفاها عنك الجميع، نحن لا نصدق الحقيقة فقط لأننا نخشى على أوهامنا أن تتحطم.

وأي تحطم هو ذاك الذي بعثرني حينها؟! وأي صدمة تلك التي طوقتني وهدمت معها كل شيء.. كل شيء ؟!

سعادتي وثقتي بالناس وعواطفي بل وكل "آمنه " !!

تراجعتُ للوراء أجر خطواتي بثقل، ثم غادرت المكان ركضاً، وعيناي لا تريان شيئاً وأذناي لا تسمع سوى صوت يكرر: "قتلها بسلاحه"!!

وصلتُ للبيت وصدري ينتفض بقوة، وضعتُ يدي عليه محاولة تهدئته لكن كان خفقانه يزداد ويزداد، دفعتُ الباب وولجت دون أن أغلقه ورائي.

وجدتُ "أرجينا" تجلس على كنب في الصالة وبيدها كتاباً تقرأه.

ما إن رأت ملامحي تلك حتى وقفت تنظر إلي متسائلة بقلق: ما الذي تشعرين به؟ لمَ وجهك مصفر هكذا ؟! هل أصابك مكروه؟

ظللت للحظات أشهق الهواء وأزفره من فمي قبل أن تنفجر دموعي وقلت بشفاه ترتجف: "أرجينا" أُصدقيني القول..

اقتربت مني باضطراب ومدت يدها؛ لتمسك بكتفي لكنّي ابتعدت!!

ابتلعتُ ريقي وحاولت جاهدة أمساك دموعي وأخيراً نطقت: هل صحيح بأن "رادوفان" هو قاتل ....

انتحبت وأنا ألفظ اسمها "فاتيم "؟؟

وجم وجهها للحظات دون أن تجيب وأخيراً اقتربت مني مجدداً محاولة أن تضمني وتهدئني لكنّي نفضتها بقوة وأنا أصرخ في وجهها: هو سؤال محدد.. جاوبي نعم أم لا ؟!

لكنها صمتت ولم تُجب وحينما مالت عينيها يساراً؛ أقفلت عائدة ورائي بهلع، ثم اندفعت نحو الباب خارجة، لحقتّي صوتها وهي تصرخ قائلة "تمهلي يا أمنه أرجوك حتى أوضح لك".

ولكني لم التفت للوراء واتجهت مباشرة إليه هو.

قرعتُ الباب بعصبية ثم دفعته؛ فلم يكن موصداً، دلفت للصالة لم يكن موجوداً بها لكنّه رآني من نافذة المطبخ فخرج سريعاً بوجه قلق وهو يقول: "آمنه ماذا دهاك؟!"

لكنّه ما إن رأى وجهي حتى انقبضت ملامحه وبدت خرساء!!

عضضت على شفتي وأنا أضغط على صدري الذي ينتفض بشدة أمامه.

ثم أرخيت يدي وأطبقت شفتي؛ لأستعيد شيئاً من هدوئي ثم أخيراً نطقت بوجع: هل صحيح بأنك قتلت "فاتيم" ؟! هل هذا صحيح؟!

ظل يحدق في عيني دون أن ينطق بشيء، ثم خفض رأسه وشعرتُ بشفتيه المطبقتين ترتجف هي الأخرى.

فصرخت بانفعال "أخبرني بأن هذا كذب وينتهي الأمر"

لكنّه رفع إلي عينين تنهمران بالدموع على خديه دون توقف .

تلك الدموع، جعلتني أشعر بأن كل شيء حولي قد هوى على رأسي؛ فاندفعت نحوه ولا أعلم كيف تملكتني القوة حينها فجذبته من ياقته وأنا أنظر لعينيه استجدي منهما حديثاً مختلفاً وإجابة أخرى؛ فكررت مجدداً ولكن بصوت ضعيف يرتجف رجاء "قل بأنه كذب.. أرجوك"

لكنـــــه..

أمسك بيديّ وأبعدهما وهو ينظر إلي بذات النظرات المتألمة وذات الإجابة!!ثم أشاح بوجهه.

هززتُ رأسي نافية ثم جثوت على ركبتيّ وصرختُ بانفعال: "مستحيل.. هذا مستحيل.. لمــــــــــــــاذا؟؟

لماذا قتلتها؟ لقد كانت تثق بك وتحبك جداً، وكنتُ أنتَ أيضاً كذلك، لا أًصدق أنت تكذب حتماًا!! أرجوك أخبرني أنك تكذب.

ندت مني شهقة عالية وأخذت أضرب رأسي بيدي ثم ملت برأسي على الأرض وصرخت قائلة "حتى لو أُمرت بذلك وأجبرت، ما كان عليك فعل هذا، لقد كانت تحبك جداً .. جداً.

رفعتُ رأسي ناظرة إليه، كان ينظر إلي بألم وهو غارق بدموعه، فقلت: ألهذا ساعدتني وأنقذتني ورعيتني مع "أرجينا" فقط..... لأكون كفارة لك ؟! ألهذا ساعدتني حقاً؟!

لكن وجهه ولسانه بُكِم ولم تكن تتحدث سوى دموعه المنهمرة بغزارة وسط صمت كرهته ومقته بشدة.

بالكاد وقفت وأنا أمسح دموعي بيديّ، ثم خرجت من الباب هائمة على وجهي، بساقين تتخبطان ببعضهما.

كنتُ أسير بلا هديْ كمن أصيب بُسكر أفقده عقله.

حتى وجدتُ نفسي أخيراً أقف أمام بيت الحاج "حسن" و"بهيرة".

لم أنم تلك الليلة ولم أخبرهما بالذي حدث وظللت غارقة في صمتي طوال الليل، تتفقدني "بهيرة " من حين لآخر.

في صباح اليوم التالي خرجت قبل الساعة السابعة واتجهت للمكتبة، قدمتُ استقالتي وبدل من أن أذهب للجامعة، ظللتُ جالسة في مقهى، شربت فيه ثلاثة أكواب من القهوة، حتى أشارت

الساعة للثامنة والنصف، عدت حينها للمنزل لشيء واحد فقط، هو حزم أمتعتي من هذا المنزل الذي شاركتني في "أرجينا" بكل كرمٍ ولطف وحب ...

لم يكن ما أفعله خطئاً!!

فأنا لستُ ناكرة أبداً لفضلهما، فلولاهما لما تابعت دراستي ولما دخلت الجامعة.

ولكـــــــــــن..

أن تشعر بأنك مخدوع طوال سنوات عدة، هو شعور بشع لا يوصف، لم أستطع أن أغفر "لأرجينا" إخفائها هذا الأمر عني، فقط لأنها تحب "رادوفان" هذا لا يغفر لها أن تستغفلني كل ذلك الوقت!!

أما هو فلن أكون قادرة على مسامحته فقط لأنه أنقذني، يظل الجرم جرماً مهما تقدمت السنين.

ما إن انتهيت من حزم أمتعتي حتى خرجت سريعاً ووضعتها في بيت "الحاج حسن".

وما إن غادرت متجهة للجامعة حتى قابلت "إبراهيم" في طريقي..

لا أدري حينها لمَ تمنيت لو أن أمد كفي وأصفعه!!.

الفصل الحادي عشر : المحامية اللصة.

قد لا تبدو الأمور بالضرورة كما نراها!!

مضت عدة شهور بعد تلك الحادثة لم أرَ فيها "رادوفان " و "أرجينا" مكثت خلالها في منزل الحاج "حسن وبهيرة" وتمكنت خلالها من إيجاد عمل لي بمقهى في شارع "تيتو"

رغم أن راتبه أقل من راتب المكتبة إلا أنه كان يكفي لسد مصاريف الجامعة ورغم أني كنتُ أسلم الحاج "حسن" بداية كل شهر مبلغاً من المال، إلا أنه كان يرفضه ويعاتبني بلطف ويقول: عيب عليك ما تفعلينه يا "آمنه " فأنت ابنتي.

والحق بأنهما لم يسألا عن سبب تركي لمنزل "أرجينا" وربما عرفا منها السبب.

ولكنّي كنتُ أحرص على أن لا أذهب لمحلهما حتى لا ألتقي "بأرجينا" و"رادوفان" بل كنتُ أتعمد اتخاذي طرق أخرى حتى لو كانت أطول خشية أن أقابلهما!!

كانت امتحاناتي الجامعية الأخيرة على الأبواب؛ لذلك كنتُ حبيسة المنزل لا أخرج إلا للعمل أو الجامعة أما أيام الإجازات الرسمية فأني أقضيها بين الكتب.

وفي صباح أحد أيام يوليو سنة ٢٠٠٧م* وبينما كنتُ أتناول إفطاري مع الحاج حسن وبهيرة، كان التلفاز يعمل على أحد القنوات الإخبارية بصوت منخفض..

---

*:الواقع بأنه ألقي القبض عليه في ٢١ يوليو عام ٢٠٠٨م وخضع للمحاكمة في محكمة لاهاي الدولية عام ٢٠١٢م أي بعد خمس سنوات من إلقاء القبض عليه تقريباً،وفي ٢٠١٦ م تم الحكم عليه في جلسة النطق بالحكم في محكمة الجنايات الدولية بالسجن لمدة ٤٠ عاماً.

حتى ظهرت فجأة صورة المجرم الصربي "رادوفان كراديتش" خلف المذيع الذي كان يتحدث.

نهض الحاج واقفاً بفزع وهو يشير للتلفاز ويقول: "كراديتش" ارفعي الصوت يا "بهيرة".

لكن "بهيرة " كانت هي الأخرى فاغرة فمها بذهول، فنهضت أنا سريعاً ورفعت الصوت وإذ بالمذيع يقول: حيث تم إلقاء القبض عليه وهو على متن حافلة في العاصمة الصربية "بلغراد" وكان يحمل أوراقا وبطاقة هوية مزيفة، وقد تبين فيما بعد أن "كراديتش" كان يعمل في عيادة خاصة متخفياً تحت شعر أبيض ولحية بيضاء كثيفة وطويلة، ويحمل أوراقاً ثبوتيه مزورة.

صرخ حينها "الحاج حسن" وهو يرفع يديه لأعلى هاتفاً: الحق لا يضيع، لا يضيع.

بينما كنتُ أحاول سماع تتمة كلام المذيع الذي قال: وكان ينتقل تحت اسم "دراجان بابيتش".

هتفت حينها "بهيرة" وهي تضرب على صدرها شاكرة وتقول : الحمد لله الحمد لله..

ثم بدأت تصفق وتغني بأغنية شعبية كنتُ أسمعها من أمي وبدأت تقفز وتتحرك وترقص وكأنها قد أصبحت في العشرين من عمرها وشاركها الحاج حسن. كانا يشبكان يديهما ببعض ويدوران حول بعضهما بفرح ويغنيان سويّا بينما كنت اتابعهما وأتابع التلفاز بذات الوقت، ثم ظهرت صورة كراديتش وهو متخفي بلحية وشارب .. فأثارت دهشتي**!!**

حينها جذبتني العمة "بهيرة " من يدي وأخذت تدفعني لأرقص معها.

ورغم أني كنتُ أتحرك آنذاك وأتمايل بخفه كما الحمقاء إلا أنني ضحكتُ من أعماق قلبي وشعرت بفرح لا يوصف.

بعد ذلك هدأت "بهيرة" وجلست بينما ظل الحاج حسن واقفاً يتابع الخبر.

أشرت للعمة نحو التلفاز وقلت: أليس غريباً أن لا يعرفه أحد خلال كل تلك السنوات فقط لأنه أطال شعره وتخفى بلحية وشارب؟!

حينها قالت العمة كلمات ضربت على أوتار قلبي وأيقظت فيني وجعاً أردتُ نسيانه، حيث قالت: الحقيقة لا تختفي أبداً، مهما طال أمدها لا بد أن تظهر.

خفضت رأسي للأسفل وقد غشيني الحزن.

كان لا بد لحقيقته أن تظهر هو الآخر، مهما ارتدى من أثواب لطف وتظاهر بالطيبة !!

لكن لماذا الشعور بالذنب يطغى علي ؟! لماذا مع هذا أشعر بأني أنا المذنبة ؟!

هل هنالك شيء ما خاطئ ولم أفهمه ؟!!

لماذا شعرت بأن عينيه تختزلان حديثاً مختلفاً؟!!

صوت من الماضي يخترق أذناي، صوت هتافه مع "أرجينا" في حفلة نجاحي في السنة الأولى من الجامعة وهو يقول: "مبارك لمحاميتنا آمنه " .

لماذا أشعر فجأة بأنني أريد أن ألعب دور المحامية ؟!! وأبحث عن ذاك الحديث الآخر في عينيه ؟؟!! هل هو الحنين لهما؟! أم أنه الشعور بالذنب الذي يثقل علي؟! وإحساسي بأن ثمة شيء ناقص؟!

لوحت "بهيرة " بكفها عند رأسي فرفعته ونظرت إليها بحرج وهي تسأل: فيمَ تفكرين ؟

هززت رأسي نافية وأنا أهم بالقيام للذهاب للجامعة.

أوقفتني قائلة : إلى أين يا "آمنه " ؟

ألقيت نظرة على الساعة في يدي ثم جلست مجدداً بينما اتجه الحاج إلى المطبخ.

زفرتُ الهواء بقوة وسألتها: عمه "بهيرة " ماذا لو كان هنالك شخص يخدعك لسنوات ثم عرفتِ ذلك ؟ ما الذي ستفعلينه حينها؟

صمتت قليلاً قبل أن تجيب: بداية علي أن أعرف هل كان هذا خداعاً أم لا، وإن كان كذلك، علي أن أعرف الدافع من ورائه.. يا ابنتي الأمور ليست بالضرورة تبدو كما نراها.. ثقي بذلك، وكونك محامية فيجب أن تؤمني بهذا؛ لكي تصلي للحقيقة.

ورغم أني شعرت بالإعجاب مما سمعته للتو إلا أن قلبي كان يخفق بشدة واضطراب، وازداد شعوري باللوم.

لمَاذا لم أفكر بذلك من قبل؟!! لمَاذا لم يطرأ هذا على بالي قبل الآن ؟؟!هل حقاً الأمور لا تبدو دوماً كما نراها؟!!

خرجتُ سريعاً واتجهت ليس إلى الجامعة بل إلى قبر "فاتيم" !!

وحينما وصلت للشاهد وجدت عليه زهوراً وردية اللون، استثارت غضبي، أمسكت بها وهممت بقذفها على الأرض.

ولكني نظرت للقبر وقلت: ما الحقيقة ؟! ما الذي حدث يومها يا "فاتيم"؟! ما الذي تعرفينه أنتِ ولا أعرفه أنا ؟؟

شعرتُ بدموعي حارقة وهي تعبر خديّ، مسحتها عل قلبي المشتعل يهدأ.

بعض الذكريات التي تتدفق بلا موعد وبلا إذن، تكون أشبه بحبال النجاة التي تمتد للغريق لتنتشله من الغرق.

لا أدري لمَ حينها تذكرت ذلك الحوار الذي دار بيني وبين "إبراهيم" في مكتبه..

" أهم شيء يجب أن يقوم به المحامي هو إيمانه ببراءة موكله.

- ماذا لو كان الموكل ليس بريئاً إذن؟

-على المحامي حينها أن يبحث عن كل الأدلة والبراهين التي تؤيد براءته وإلا فلا"

شهقتُ الهواء بقوة ثم دفعته من فمي، تأملت الأزهار ثم أعدتها إلى مكانها وأنا أهمس بأعماقي قائلة: أنتِ تثقين به أليس كذلك، يا فاتيم؟!

ومنذ تلك اللحظة عزمت على البحث عن كل الأدلة بنفسي سواءً تلك التي ستدينه أو التي ستبرئه ولكن من أين أبدأ وكيف؟!!

كان ذلك هو كل ما يشغل تفكيري أثناء المحاضرات، كما أني كنتُ أشعر بالتيه كذلك.

فقد كان في أعماقي يتردد صوت "إبراهيم" وهو يقول :"الإيمان ببراءة الموكل!!"

هل إن آمنت بذلك سأعمل بجد وأصل ؟؟!!

بعد أن انتهى يومي الجامعي، كانت الفوضى لا تزال تعصف بذهني، اتجهتُ لعملي في شارع "تيتو" ..

"تيتـــــــــــــــــو"؟!!

لوهلة تذكرت الدفتر البني الذي كان يكتب فيه مذكراته، لقد بدأها بذكر اسم الرئيس "تيتو"!! هل كان يعني ذلك بأنه سجل فيه أحداث طفولته ؟!

لابد وأنه قد ذكر ما حدث في الحرب أيضاً؟!!

لم يهدأ بالي طوال فترة العمل، أسقطتُ الأكواب، وكسرتُ بعض الأطباق، كان شرودي واضحاً، فقد كان جل تفكيري آنذاك هو كيف سأستطيع أن أحصل على ذلك الدفتر؟!

هل اقتحام بيوت الناس يعد لصوصيه ؟!! هل الاطلاع على خصوصياتهم يعد انتهاكاً؟!

كدارسة للقانون هذه جريمة يعاقب عليها فاعلها.

ولكن أعتقد بأنّي هذه المرة سأفعل ذلك وسأخرق القانون.

فلستُ سوى محامية متحمسة لبراءة موكلها!!

هذا ما عزمت عليه يومها، وانتظرت قدوم يوم الخميس بفارغ الصبر ؛ أعرف بأن عمل رادوفان و"أرجينا" يكون صباحاً يومها.

وفي صباح ذلك اليوم استيقظت وأنا أشعر براحة عجيبة وشعرت بأنّي أتحرك وأنتقل بخفة وكأني تخلصت من ذلك الذنب، رغم أني عازمة على ارتكاب جريمة أكبر بعد ساعات.

تناولت إفطاري مع "بهيرة " فقط حيث سبقها الحاج حسن لفتح المحل، حتى هي لاحظت ذلك الشعور على وجهي فعلقتْ قائلة: تبدين مبتهجة اليوم؟!

أجبتها وأنا أشرب من القهوة : صحيح.. أنا أشعر بالابتهاج؛ ربما لأني حصلت على علامة عالية في امتحاني.

ربتت على كتفي وهي تقول: هذا جيد وفقكِ الله يا ابنتي.

ثم غادرتْ المنزل. أما أنا فقد ظللت أراقب الساعة بملل وأنتقل من قناة لأخرى بضجر أكبر، حتى أشارت الساعة أخيراً إلى الثامنة والربع، الوقت الذي حددته لارتكاب جريمتي!! حينها وقفت متأهبة ولوهلة طرأت في ذهني فكرة حمقاء، تخيلت بأني سأحتاج لقفزات لإخفاء الأدلة !!

خرجت سريعاً، أسابق خطواتي وما إن وقفت أمام منزله حتى كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف.

عبرتُ الحديقة ثم وقفت أمام باب المنزل، تنفست بعمق ودفعت الهواء من فمي بقوة في تأهب واستعداد.

حركت مقبض الباب بوجل خشية أن يكون موصداً، ولكن كما توقعته كان مفتوحاً.

وما إن دلفت للداخل، حتى بدأت أفتش عن ذلك الدفتر في الصالة وفي المكتبة، بحثت في كل الرفوف دون جدوى، ثم اتجهت إلى المطبخ وبحثت في كل الدواليب دون جدوى أيضاً، بقي أمامي غرفة نومه فقط، فلم أتردد وفتحتُ الباب وفتشتُ فيها هي الأخرى.

لكن دون جدوى، أحسستُ بخيبة تملكت قلبي وبوجل، لمجرد أن طرأت في ذهني فكرة بأنه من الممكن أن يكون قد تخلص منه بحرقه أو إلقائه في سلة المهملات!

كادت الفكرة أن تقضي على كل ما بقي في قلبي من أمل.

خرجتُ من المنزل وأغلقتُ الباب خلفي.

وما إن عبرت بجوار طاولته الخشبية حتى شعرت بحنين غريب يطوقني، فجلستُ على الكرسي واستندت على الطاولة.

حينما ينتابنا الحنين، لا نعلم أي شكل سيتخذه وأي طقس سنمارس نحن معه أيضاً!!

حينها لفت نظري جزءًا من الحديقة ليس به زرع! ويبدو بأنه قد حفر حديثاً، اتجهتُ ناحيته وتوقفت انظر إليه. كانت الحفارة

موضوعة على السور، تلفتُ حولي ثم اقتربت منها وأمسكتها بيدي، ثم اتجهت نحو تلك البقعة ..

هل حفر حديقة أحدهم جريمة يعاقب عليها القانون أيضاً ؟!!

شمرتُ عن ساعدي وأنا أقول لقد فعلتُ ما هو أسوأ، على الأقل سيكون هنالك أكثر من جريمة سأعاقب عليها، استراق النظر والمراقبة والتلصص على بيته واقتحامه وقراءة مذكراته وحفر حديقته ثم سرقة مذكراته !!

شرعت بالحفر، حتى ظهر جزء من طرف الدفتر، لقد صدق ما خمنته، انحنيت للأرض ونفضت التراب العالق به، ثم أخرجته وشعرت معه بأني نلت كنزاً ثميناً.

ثم انطلقت سريعاً خارجة من ذلك البيت تاركة خلفي كل الأدلة التي تشير إلي.

ورغم أنّي عدتُ للبيت سريعاً، إلا أنّي خبأته تحت وسادتي وفي أعماقي يتملكني الخوف والرهبة، والفضول وشعور غريب يشبه اللذة!!

قررتُ أخيراً أن أعد لي كوباً من القهوة، ثم جلست على سريري معتدلة وأمسكتُ الدفتر، مسحت عليه ثم شرعت بقراءته.

الفصل الثاني عشر : مذكرات ذلك العاشق.

وحينما كان الشعب البوسني يطالب هو الآخر بالاستقلال، كنتُ أنا أطالب بحقي بالاستعمار؛ فلا يمكنني تصور الحرية إلا في استعمار " فاتيم "!!

ألم أقل بأنّي في حبها غدوت إمبرالياً وأبشع؟!!

لم أكن لأهتم يوماً بما كان يقال لنا في المدارس.

كانوا ينعّقون كل صباح (تيتو _ يحيا الزعيم تيتو) وكنّا مثل الببغاوات نردد : "يحيا تيتو، يحيا الزعيم تيتو*".

في الحصص الدراسية كانوا يحدثوننا عن فلادمير لينين وعن ستالين وعن هتلر أيضاً!!

وكنتُ أعلم يقيناً بأن أمي لا تتوانى بالبصق على وجوههم جميعاً في كل مرة ترى صوراً لهم، ثم تتبعها بمقولتها المعهودة "اللعنة على ستالين " اللعنة على لينين" و "تيتو" أيضاً!!

ومع هذا، كان من الواجب علينا تمجيد "تيتـــو" بالمدارس.

حقيقة لم أكن أهتم بكل هذا، ولم أكن أستوعب شيئاً مما يقال، ولم أكن التفتُ لشيء عدا تلك الجالسة على ذلك المقعد يميناً على مرأى بصري.

"فاتيم" أو "فاطمة " كما بالعربية اسمها.

---

*: جوزيف بروز تيتو كان ثوري عسكري ورجل دولة يوغسلافي من أصل كرواتي، شغل العديد من المناصب منذ عام ١٩٤٣ حتى وفاته وخلال الحرب العالمية الثانية كان تيتو رئيس المقاومة اليوغسلافية ضد الاحتلال النازي ،اكتسب شهرة وسمعة دولية كونه مؤسس حركة عدم الانحياز في الحرب الباردة، بعد وفاة تيتو عام ١٩٨٠ تفككت البلاد ،المثير للدهشة هو وصف الرئيس علي عزت بيغوفتش له بقوله :إنه كان طيباً وسيئاً وربما كان شخصاً جيداً يرأس نظاماً ما سيئاً أو سيئاً في الفترة الأولى من حكمه ولكنه تغير لاحقاً!! وهذا يثير الإعجاب ليس بتيتو بل ببيغوفتش وطريقته المدهشة في الحكم على الأشخاص.

تلك الفتاة الصامتة، صاحبة العينين الواسعتين المخضرة، والوجه الأبيض المستدير، والشفاه الضيقة، ذات شعر بندقي اللون كانت دائماً ما ترفعه كذيل حصان يختال خلف ظهرها بزهْو.

لم يكن جمالها هو ما جعلني أنجذب إليها بقدر تلك الهالة التي تحيط بها، هالة من الهدوء ومن الطهر وربما هالة من الغموض تقتلني بالفضول لاكتشافها!!

أعلم وأعرف يقيناً بأنها مسلمة وبأنّها تخالف عقيدتي، ولكننا في "سراييفو" لم نكن لنهتم بذلك؛ فكثيراً ما أرى أمي تجلس بجانب جارتنا أم "أرجينا" تتحدث معها وتشرب القهوة البوسنية في الحديقة ، وتبدأ أمي حديثها دوماً بكلامها المعهود..

"اللعنة على لينين " اللعنة على ستالين" ثم تختمها بعبارتها التي تفيض بها كل التناقضات في أعماقها قائلة "اللعنة على الأرثوذكس" أمي كانت تلعنُ كثيراً حتى نفسها أحياناً!!

و"أرجينا" تلك الفتاة المزعجة والشقية، والتي يعرفها كل المعلمون، بل كل من في المدرسة. كانت دوماً ترافقني في طريق العودة والذهاب وكنتُ أمر من عند والدتها خافضاً الطرف لتحيتها.

فكانت تعلق مشيدة باحترامي الذي كنتُ أبديه لها وتقول: "رادوفان"، يا لك من ابنٍ محترم.

كنتُ أفعلُ ذلك ف الحقيقة؛ كي أتقرب منهما وأعرف أكثر عن ديانة تلك "الفاتيم" صاحبة تلك الهالة.

حيث أن الفضول بات يؤرقني تجاهها، أريد أن اكتشف عوالمها الصامتة تلك، وأي شيء يختبئ خلف هدوئها ذاك.

هي تختلف عن البقية ولاشك، تظل متقوقعة في مكانها، لا تشارك في الأنشطة ولا تتحدث مع أحد إلا بالشيء اليسير.

تسرح بعينيها الفاتنتين متأملة كل الأشياء حولها بسكون تام.

ذات مرة، تلك العينان، التفتت نحوي، ألقتْ نظرة سريعة علي، ثم عرجت للجهة الأخرى.

تلك اللحظة ظننتها أول مرة تشاهدني فيها، أحسست بعدها بأوردتي تمتلأ بالدم فاحمررت خجلاً ، وخفضتُ رأسي سريعاً، أُقلبُ الكتاب أمامي، تتصاعد أنفاسي بارتباك واضح.

وذاك يصيح على رؤوسنا عن انجازات "تيتو" المذهلة وسياساته الأخيرة في "عدم الانحياز"!!

لم يكن الأستاذ يدرك بأن كلامه ذلك، يجبرني ويشدني أكثر "للانحياز" عكس ما أراد" تيتو" فأنّي من أجلها سأصبح عنصرياً منحازاً "تجاهها" إن كان ذلك سيبرر استراقي للنظر إليها بين كل حين وآخر.

ليستكن قلبي في ضجيج حضورها.

ذات مرة ..

هل أسميها " حظاً " ؟! أمي ترفض ذلك بشدة ؟! وتخبرني دوماً بأن كل ما يقع لنا هو قدر قد كتبه الرب لنا، ويجب أن نحمده ونشكره عليه.

هل أصرخ الآن وأهتف حامداً، أم كلا سأذهب للكنيسة وأصلي للرب شاكراَ، بعد أن منحني تلك الفرصة.

قسمنا الأستاذ إلى مجموعات وكنتُ أنا ضمن مجموعة "فاتيم".

قفزت من مكاني حاملاً كرسيّ سريعاً واتجهتُ ناحيتها؛ لأجلس بقربها في المجموعة قبل أن يسبقني أحداً لجوارها.

كان الأستاذ يلقي علينا ما يجب فعله داخل نطاق المجموعة، وكانت عيناها تنظران نحوه باهتمام بالغ، أما أنا فلم أكن استمع لأي شيء.

كنتُ أشعر بالهدوء يسكنني ولا مشاهد حولي سواها.

فتحتْ كتابها لصفحة ما، ثم عاودت النظر للأستاذ .

ثم ألقت بنظرة خاطفة علي وللمرة الثانية أشعر بذات الإحساس، أوردتي تمتلأ بالدماء فيحمر خدي بخجل واضح، وقلبي يخفق بشدة للحد الذي أظن معه بأنه سيقفز من قفصي الصدريّ مغادراً، خفضت رأسي للأسفل، وحينها رأيت أصابعها وهي تمتد نحو كتابي؛ لتفتحه وتقلبُ في صفحاته وتشير بسبابتها على رقم احدى الصفحات.

وحينها فقط وللمرة الأولى، التقت عينايّ بعينيها مباشرة وندت من شفتيها بسمة رقيقة لكنّها كانت دافئة حقاً، ثم عادت لتنظر للكتاب، تاركة قلبي يصارع اضطرابه وحده.

كان يعني أننا أصبحنا في مجموعة واحدة، بأننا سنعمل سويّا معاً في أوقات كثيرة حتى ننهي مشروعنا البحثي، الذي تمنيته لو لم ينتهي آنذاك.

كانت مجموعتنا مؤلفة من ثلاث فتيات وأربعة صبية، كان من ضمن الفتيات "أرجينا" المزعجة، أعترف بأن الفضل يعود لها بكسر حاجز الصمت بيننا.

كانت الفتاة الثالثة من الكروات أي أنها كانت كاثوليكية وكان أسمها "ميرلا" -إن لم أنسى- وبقية الصبيان كانوا من الكروات وحدي الذي كان صربياً بينهم، ولكن لم يكن كل ذلك يُهم.

كما كان يقول أبي " لا يهم أن تكون كرواتي أو بوشناق أو صربي " كلنّا أبناء وطن واحد. كلنا بوسنيون، وكلنا يحب "تيتو" هكذا كان أبي يقول ويناقض نفسه في أوقات كثيرة؛ بل الغريب أنْ أبي كان يصف الشيوعية بأنها ضدنا تارة وتارة من أجلنا ولا أعرف كيف يطلق الكبار آرائهم ويتحمسون لها ويهتفون ثم يتراجعون عنها سريعاً!! لأجل ماذا ولماذا؟!

"تيتو " أو "ستالين " لم يكن يُهمني من هذا شيئاً ولا حتى هذا المشروع، كنتُ أريد أن أعرف أكثر عن تلك "الفاتيم"، وبالطبع هذا ما حرصت عليه في أول جلسة لمجموعتنا في المكتبة، كان الجميع بداية يحاول اختيار موضوع لنبدأ فيه البحث.

خاض الجميع حديث طويل بين شدّ وجذب وكان الصوت الأعلى هو صوت "أرجينا".

بينما كنتُ غارقاً في الصمت أمام حضرة هدوئها حتى تحدثت هي أخيراً وأبدت رأيها في الموضوع.

ثم دون تردد ودون تفكير، أيدتُ رأيها وأبديت موافقتي، الحقيقة أنا أجهل لحد اليوم ماهية الموضوع الذي اقترحته أصلاً، لكنني كنتُ مستعداً لأفعل أي شيء، لأقول أي شيء ، من أجل أن تلتفت لي فقط.

حينها كافأتني بابتسامة جميلة وعلى محياها الرضا، فوافق الجميع دون اعتراض على اقتراحها ثم بدأنا العمل.

اتجه الجميع بحثاً عن الكتب بين رفوف تلك المكتبة العتيقة الممتلئة بالغبار، أما أنا فأحسستُ حينها بالتيه وأنا أقف كالأحمق الواقع في ورطة متسائلاً: حقاً ما كان عنوان البحث الذي اقترحوه ؟!

حينها علقت " أرجينا " بتهكم : "رادوفان" ..أنت لا نفع منك.

ثم التفتت إلى "فاتيم" قائلة: أخبري ذلك الأحمق ما الذي يجب عليه فعله؛ فقد كان طوال الوقت يحدق بك.

ضحكت "فاتيم" بلطف وبرزت أسنانها الصغيرة البيضاء، لم يكن يهمني أن تضحك ساخرة مني، لم يكن يهمني أن أبدوا أحمقاً في نظرها، المهم بأنّي قد رأيت وجهها كيف يبدوا وهي تضحك، لو تعلمين "يا فاتيم " كم تمنيتُ لو أن الزمن كله توقف عند تلك اللحظة، حينما ضحكتِ، ولم نتحرك ولم يحدث شيء مما جرى بعدها .

لو أن اللحظة تلك توقفت عندما ضحك ثغركِ، ولم يتحرك ذلك الطوفان الذي اغتالنا معاً.

آه يا "فاتيم " لو أنهم رأوك كما رأتك عيناي عندما تضحكين، لقالوا تعساً " لاتحاد يوغسلافيا" وجحيماً للصرب؟! ما ضرهم لو رضوا باستقلال البوسنة والهرسك، ما شأننا نحنُ بكل هذا؟!

هل أقول كما كانت تقول أمي وهي تنتحب في التسعينات قائلة: اللعنة على الصرب!!

لكن ما الذي سيغيره اللعن وما الذي سيفنيه، وما الذي سيبدده، وما الذي سيبقيه؟!

لا شيء أبداً .. حتماً لا شيء.

أمي كانت تدرك ذلك ولكنّها مع هذا، كانت تستمر في اللعان وكأنها حيلتها الوحيدة!!

لكنهم يا "فاتيم" فطموك وأنتِ لا تزالين في مهد شبابك وبتروا حبي لك وهو في بؤرة اشتعاله.

أه يا "فاتيم" لو أن لي مدفعاً قادراً على الحراك، لحركته صوبهم وتركته ينحى عن اتجاهك، ولكنهم قتلوني قبلها، قتلوني بأبشع طريقة "حينما سفحوا من ضميري الإنسان".

عذراً يا "فاتيم" فأنا لم أعد إنسان !!

تعود بي الذكرى لذلك اليوم..

بعد ضحكتك الخالدة تلك، جلستِ بجانبي تطالعين كتاباً، كنتِ تضعين العلامات لي؛ لأدونها في دفتري.

كنتُ أحاول جاهداً أن استمع باهتمام لما كنتِ تقولينه لكن صوت خفقات قلبي كان أعلى وكان يشوش علي؛ لذا أتراكِ غفرتي لي حماقتي وهفوات سرحاني وأيقنتِ ما الذي أيقظته داخلي من شعور؟!

أظنك يا "فاتيم" كنتِ تعيشين ذات الشعور وذات الاضطراب.

وكان قلبك أيضاً يخفق بالحب وأن أنكرتِ ذلك آنذاك.

بعد يومنا هذا ..

أصبحنا نتحدث أكثر، نثرثر حول بحثنا ليس أكثر.

لكنك فيما بعد أصبحتِ تفتحين قلبك شيئاً فشيئاً وتكشفين لي شيئاً من عوالمك الغامضة تلك، حدثتني ذات مرة عن والديك وعلاقتهما المضطربة، لقد كنت تخشين وقوع الطلاق بينهما.

هل تذكرين حديثك ذلك ؟!

كنتِ تتحدثين عن أمك التي صُدمت بوالدك، الذي أصبح يعاملها بسوء بعد حسن معاشرة وود بينهما، هل تذكرين ردي لكِ حينها ؟! كان أحمقاً للغاية !! فلم أكن أدرك مدى حجم المشكلة بينهما؛ فوالدي ووالدتي كثيراً ما يتخاصمان حول أمور سياسية أجهلها ولم أكن ألقي لهما بالاً..

باختصار لأنني كنتُ كل يوم أبحث عنك أنتِ يا "فاتيم".

وذات يوم لاحظت فيه ارتباكك و شرودك.

في ذلك اليوم لم تنظري نحوي ولم تسترقي النظرات إلي؛ لتلتقي أعيننا فجأة ثم نخفض رأسينا على خجل يورد خدينا معاً.

وبعد أن أنصرف الجميع، تسللتُ هارباً من "أرجينا" وتعللت بأنني قد نسيت شيئاً في الصف.

طلبت منها بأن لا تنتظرني؛ فعدت لأجدك تمسكين مصحفكِ وتقرئين فيه من آيات القرآن، بصوت جميل وخاشع لم أنسَ ترنمك به حتى اليوم يا "فاتيم "؛ بل قد لا تصدقي بأن ذلك الأحمق قد حفظ ما قرأته من مرة واحدة آنذاك.

"الرحمن" "علم القرآن" "خلق الإنسان" "علمه البيان" ..

هل صدقتِ الآن بأنني قادر على تجاوز كل الحدود لأحوزك؟! ألم أقل لك ذلك يوماً ؟! لا أظن بأنك قد نسيتِ ؟!

كنت تقرئين بخشوع تام وأنفك محمر من كثرة البكاء، وعيناك الممتلئة بالدموع أظنها كانت تحيد بينك وبين النظر ومع هذا كنتُ تقرئين بلا توقف.

وفجأة انتبهتِ على وجودي فانتفضتِ خائفة، وذلك بديهي حيث أن "تيتو" والذي سلك سياسية "عدم الانحياز" هدم مساجدكم ومنعكم من حق ممارسة عبادتكم!!

بارتباك مسحتِ دموعكِ وهممتِ بإدخال مصحفك للحقيبة ولكنّي أوقفتك قائلاً: "فاتيم"، أرجوك لا تتوقفي؛ لقد أعجبني صوتك.

حينها انفجرتِ بالبكاء أمامي وأخذتِ تشهقين بقوة، لم أكن أعرف ما الذي ينبغي علي فعله، ولم أكن واثقاً إن كان يحق لي لمس وجنتيك ومسح دموعك ولكني فعلت ذلك أخيراً بعد تردد.

وبدأ بأنك قد هدأتِ قليلاً ، ثم استدرتِ عني بخجل وقلتِ بصوت خفيض: لقد انفصل والداي.

وأنا الأحمق لم أجد ما أعبر به ولم أعرف كيف أواسيك ولا أعلم من أين عانقتني تلك الجرأة حينها حتى قلتُ لكِ: "فاتيم" حينما نكبر هل ستتزوجنني ؟!! أنا لن أتركك أبداً.

لو سألتني لمَ قلتُ ذلك حينها وهل قصدتُ منه مواساتك ؟! لقلت لكِ بأنك مخطئة، لقد قلتها وأنا صادق تماماً ومدرك لكل شيء حولي ومدرك تماماً لشأن اختلافِنا العقيدي.

نظراتك المندهشة والتي سرعان ما تبددت إلى ابتسامة ساخرة عقبتها ضحكة لطيفة.

ثم أشحتِ بوجهك للجهة الأخرى وقلتِ معلقة :"رادوفان"، أنا مسلمة وأنت أرثوذوكسي وهذا غير ممكن.

حينها رددتُ بكل ثقة: لا يهم هذا، حينما أكبر سأصبح مسلماً، المهم بأن توافقي.

لازلت أذكر حينها الارتباك والخجل الذي بدا جلياً على وجهكِ، حملتِ أغراضك سريعاً ودسستها داخلَ حقيبتك في فوضى عارمة، أظنّها كانت تمثل فوضاك الداخلية التي شعرتِ بها آنذاك.

ثم حملتِ حقيبتك على ظهرك وهممت بالمغادرة، حينها أمسكت بكفك وجذبته نحوي وقلتُ بإصرار وعناد: "فاتيم"، إن فعلتُ ذلك حقاً .. فهل ستقبلين بي ؟!

دفعتِ كفي بحرج ورفعت عينيك للسقف وبدوت سارحة للحظات ثم أجبتِ: إن فعلت ذلك فلن أرفضك.

ثم غادرتِ سريعاً، لكنك ما علمتِ بأنك تركتِ قلبي وقد انتشى فرحاً، ورقص ببهجة أكبر من أن تسعه.

وضعت يدي على صدري محاولاً إخفاء فرحي؛ كي أبدو طبيعياً لكني لم استطع؛ فالابتسامة كانت تخترق شفتيّ؛ شعرت بأن الجميع كان قادراً على رؤية ما أشعر به الآن على وجهي، أحسست برغبة شديدة لاحتضان شخصاً ما.

عدت للمنزل فعانقت أمي بشدة، ثم اتجهتُ إلى غرفتي وأنا أرتل ما سمعته منك " الرحمن " "علم القرآن" على مسمع من والدتي ظننت بأنها لن تفهم ما قلته أو ظنته نشيداً وحسب بسبب ابتسامتها الواسعة، لكنها سرعان ما علقت قائلة: "رادوفان"، لا تقل هذا الكلام أمام والدك، إن سمعك لا أعلم ما الذي سيفعله بك!!

لا بأس يا "فاتيم" لم يكن هذا ليثنيني و يفقدني عزيمتي، أخبرتك سابقاً بأنني لم أكن أهتم لأي شيء "عداك".

آه فقط ، لو بقيت الأمور كما هي، لكن بعض السنوات تمر قاسية، تُحدث بأعماقنا شروخاً لا يمكن لها أن تندمل، ولا يمكن معها أن نتنفس بحرية.

هل أكن أحمقاً كما أبي وانعي "تيتو" ؟!!

لم لو يمت " تيتو" لو منحنا بعض الوقت، هل كنا سنحمل ذكريات لبعضنا أكثر؟!

هل كانت لتكون ذاكرتي تفيض بذكرياتك دونما شح ؟!!

هل كنّا لنعيش ونحب بعضنا ونحيا تحت سقف واحد كزوجين، هل كانت لقصة حبنا الطفولي أن تكتب نهايتها سريعاً كما حدث؟!

مات " تيتـــــــــو" سمعتهم يقولون ذلك..

كعادتها أمي لعنت " تيتو " أما أبي والذي كان دوماً يقرأ التاريخ ويحب أن يتفلسف كثيراً ويربط كل ما هو قديم بالجديد ويتنبأ في مشهد لا يمكنني أن أنساه، حيث يضع يده على فمه ويرفع حاجبيه ما أن تصدق نبؤه من تنبؤاته ليقول مختالاً : أرأيتِ ألم أقل؟!

لقد بكى أبي لموت "تيتو" نعم لقد بكى وقال: "مات العزيز "تيتو"، ثم صرخ قائلاً وكأنه بذلك يهدد أمي: الأمور ستتردى من بعده وسترين، ستنهار يوغسلافيا وسيطالب المسلمون بانفصالهم وتصبح البوسنة والهرسك مسلمة!!

قاطعته أمي قائلة: وما المشكلة؟!!

لكن أبي أستمر في صراخه وقال: ستقتلين بأيدهم.

ما الذي يجعل أبي يخاف ويخشى كل هذا الحد من المسلمين؟!

علمتُ مؤخراً بأنها مجموعة مورثات غبية تدعى "عقدة كوسوفو"* و يا لها من عقدة جحيميه..

لو رأى والدي ضحكتك يا "فاتيم" لعلم أن كل الطهر والسماحة التي كنتِ تتحلين بها لم يهبها لكِ سوى الإسلام، ولكنّها المورروثات الجهنمية وعقدة "كوسوفو" وتاريخ أحمق.

ومع اشتداد حوارهما، ظلت أمي تردد غير آبه على مسمع من والدي "اللعنة على تيتو واللعنة على ستالين ولينين " ثم رصفت العديد من الأسماء معهم، حقيقة أمي لها ذاكرة حديديه كانت تثير إعجابي دوماًا!!

أه يا أمي، لو أنك أدركتِ حينها أن موت " تيتو" كان بداية تمزق قلبي أيضاً، كان يعني موت مني الإنسان، هل كنتِ ستلعنين "تيتو" أم تلعنين "رادوفان" ؟!

---

*:عقدة كوسوفو: أشارة هنا لمعركة كوسوفو التي وقعت عام ١٣٨٩م والتي انتصر فيها السلطان مراد العثماني على جيوش الصرب والذي أدى إلى انتشار الإسلام خاصة بمنطقة البوسنة ومنذ ذلك الحين بدأ عداء تقليدي وظل الأدب الشعبي الصربي يلهبه على مر العصور مترقبة اليوم التي تنتقم فيه من الأتراك أو المسلمين .

كانوا يقولون :

بعد وفاة " جوزيف بروز تيتو " عام ١٩٨٠م تهاوى النظام الشيوعي شيئاً فشيئاً في اتحاد يوغسلافيا السابق والذي كان يضم إليه ستة جمهوريات من ضمنها البوسنة والهرسك، وعلى أواخر الثمانينيات بدأت الجمهوريات تطالب باستقلالها عن "يوغسلافيا" وبدأت الحركة في سلوفيينا ثم كرواتيا ولحقتها البوسنة والهرسك ومقدونيا وكانت جمهورية الجبل الأخضر هي الوحيدة التي قبلت البقاء مع الصرب في دولة اتحادية جديدة .

*****

كيف سأبدأ وأصف سنوات التداعي اليوغسلافي وسنوات عمار حبنا العذري يا "فاتيم".

في حين كان كل شيء من حولنا يتهاوى، كان حبنا يُعمر شيئاً فشيئاً.

ورغم أنك انتقلت لمدرسة "خسروبك" الإسلامية، إلا أن هذا لم يثنيني عن الالتقاء بك وإن عنى ذلك زيارة منزلك على رفض واضح تبديه ملامح والدتك.

لكن لم يكن ذلك يهمني، فأنتِ لي وإن كان يعني ذلك بأنني سأصطدم مع والدي المتشدد ذات يوم.

المهم أنّي كنتُ مستمتعاً خلال تلك الأعوام بلعب دور الفارس الذي يهب لنجدتك كلما آذاك أحد الصبية أو حاول أحدهم الإطاحة بك أثناء اللعب حتى لو مزاحاً، ما كنت لأقبل ذلك،

أو لأقل بأني أردت أن تشاهدي بأنّي رجلاً في كل المراحل.

وكبرتِ يا "فاتيم" ..

وبدت معالم أنوثتك تظهر شيئاً فشيئاً؛ فارتديت الحجاب فأزداد جمالك به أكثر وأكثر.

وكان يعني ذلك أيضاً ابتعادك عني، بسبب توجيهات والدتك فكثيراً ما كانت تقول لك بأنك أصبحتِ امرأة يجب عليها أن تحافظ على شرفها وأن لا تخالط الشباب وأن لا تتحدثي معهم إلا بما يجب.

ولكني يا "فاتيم " مختلف، وأنتِ تدركين ذلك.

تعلمين بأني لست بعابث، وتعلمين بأني عند وعدي لك، وبأنني أدرس الإسلام سراً، أنتِ لا تعرفين كم الكتب التي قرأتها !! حتى يأتي فيه ذلك الوقت وأكون قادراً على الخروج من سطوة والدي وأعلن قراري بنفسي.

كنتِ تدركين كم هذا صعب بين والدين صربيين يدينان بالأرثوذكسية، رغم شكي دوماً بأمي، فهي كثيراً ما تبدو بنظري كاثوليكيه أكثر وأحياناً أخرى أراها تتصدع بين الاثنين بل تصل لحد أن تلعن الاثنين معاً!!

وربما كانت أمي مثلي، لا يهمها كل ذلك.

فأنا لم يكن يهمني سوى أنتِ.

كنتِ تعرفين بأني لا أعد وأخلف، كنتِ تعرفين بأنني أحببتك بكل صدق كما فعلتِ أنتِ أيضاً.

كنت أفر هارباً كل يوم فور خروجي من المدرسة لألتقي بك في طريق عودتك واتجه معك للمخبز متعللاً بشراء الخبز معك ولم يكن ذلك سوى للاطمئنان عليك والحديث معك عن أي شيء وبأي شيء حتى لو اضُطررنا للخوض عن انفصال البوسنة والهرسك عن يوغسلافيا كما كانوا يقولون وتكوين جمهورية مستقلة!!

هل تذكرين ذلك اليوم؟ يوم أن تقدم فيه لخطبتك "صالح" ابن "الحاج حسن ".

حينما التقيتِ بي أمام المخبز، واعتقد بأنه كان يوم الاثنين، أخبرتني بالخبر الذي نزل على قلبي كالصاعقة ففجر كل شيء بأعماقي وأحال وجودي أمامك إلى شبح باهت لا يبدي أية ملامح.

كم كرهتُ ذلك اليوم وكرهت "صالح " وكرهت أمي وأبي وكرهت كل شيء.

شعرت بأن "صالح" قد ارتكب جرماً عظيماً!! وهو يعلم ويرى بعينه مدى اهتمامي بك، لكن ربما كان في قرار نفسه يظن بأني لا أصلح لك.

لم أستطع أن أكون شهماً ونبيلاً وأخبركُ بأن الطريق أمامي طويل، وأن عليك خوض الحياة الزوجية معه وتنسي أمري، فهو في كل الأحوال أفضل مني ومهيأ للزواج، وأكبر منك ومني.

ولكن كيف لي أن أقول ذلك وقد كنتُ أنانياً منذ ذلك اليوم الذي ضحكت فيه وأنتِ في العاشرة فأمنيت نفسي فيه بأنك لي، ولن تكوني لسواي!

فأنى لي بعد عشر سنوات أن أؤمن بأن هذا جائز؟! وحق مشروع لك ؟!

لا "فاتيـــــــــم"..

صرختُ حينها بأعماقي أنا أصبحت مسلماً فهل من الضروري أن تكفرني الكنيسة؟!

هل من الضروري بأن يهبني البابا تصريحاً بكفري بعقيدته لأصبح مسلماً، وأخرج من الأرثوذوكسية ؟؟!

هل من الضروري أن أذهب وأشهر إسلامي الآن في جامع "خسروا بك "؟!

ألا يكفي دموعي تلك التي خذلتني وفاضت أمامك، فصمتُ دون تعليق على كلامك .

ثم أشحت بوجهي وغادرت المكان، دون أن أقول لك شيئاً أو أهبك وعداً أو حتى أن أطلب منك الانتظار !!

كان كل شيء حولي يدور، كنتُ أشعر بأن جسدي يتهاوى وسط فوضى من الأفكار وتناقضات كثيرة.

هل أخبرك؟! لقد فعلت مثل والدتي ولعنت كل شيء حتى نفسي، وركلت كل حجارة مررت بها، وبصقت طوال الطريق على كل شيء مررت من أمامه.

ثم هويت منهاراً على ركبتي ثم سجدت كما أراك تفعلين.

لكنّي لم أعرف ما الذي يجب علي قوله، أو بالأصح لم أحفظه جيداً ومع هذا ناديت الرحمان الذي كنتِ تنادينه وقلت بتذلل وخضوع ودموعي تبلل الأرض: يا رحمان ..يا رحمان يا رحمان هبني "فاتيم".

في اليوم التالي وبينما كان الجميع يتحدث عن بوادر الاستقلال.

وبأن جيش يوغسلافيا قد هاجم مع جيوش الصرب جمهورية سلوفيينا وكرواتيا، وبات الشعب البوسني يطالب هو الآخر بالاستقلال، كنت أطالب بحقي بالاستعمار!

فلا يمكنني تصور الحرية إلا في استعمار " فاتيم " ألم أقل بأني في حبها غدوت إمبرالياً وأبشع!!

التقينا مجدداً عند المخبز، هل تذكرين كيف أن أعيننا كانت تحمل أحاديث كثيرة فياضة ولكنكِ أشحت وجهك بخجل عني، فاختزلتُ كل مشاعري بكلمتين طلبتُ منكِ أن تقابليني عصراً أمام ساعة البرج الكبير.

ثم أتيت كعادتك بحجابك المزخرف أطرافه، تلبسين تنورتك الواسعة ذات اللون الأسود وقميصك ذا اللون الوردي.

وبلمحة حزن شابت وجهكِ رفعتي عينيك ناظرة إلي، تنتظرين مني البدء بالحديث.

ظللنا لدقائق نعانق الصمت، وأعيننا مثبتة نحو الساعة.

وبعدها استطعتُ أخيراً أن أنزع من يدي سواراً من خيوط الكتان الأزرق حاكته أمي لي وألبستني إياه يوماً، وهي تقول لي: بأن الأزرق يعني القوة والأمل وتحقيق المستحيل.

عقدته على معصمك وقلت لك: أنا لا أملك ثمن شراء خاتماً ألماسي لك ولا حتى خاتماً من ذهب، ولكني أعدك، بأنه سيأتي يوم وتريني فيه رجلاً يستحق الوقوف بجانبك وحينما يأتي ذلك الوقت، أعدك بأنني لن أتركك ما حييت.

فاضتْ عينيك الطاهرة بالدموع وأشربتْ خديك بحمرة خجل فجذبتي كفك و حررتِه من بين يدي باستحياء ثم مسحتِ دموعك وهززت رأسك بالموافقة وأنتِ ترسمين بسمة طاهرة على شفتيك ..وهكذا كنتِ دوماً.

فأنتِ طهر لا يجاوره الدَعر، وصفاء لا يغيره الكدر، ونقاء لا يعكره الإثم.

فيا طهارة قلبك و يا بشاعة قلبي !! قذفتك في متاهات انتظار وسط عالم يتهاوى من تحت أقدامنا وأوشك بأن يسقطنا صرعى.

وصلنا خبر المجازر الصربية في كرواتيا، ونزل الرئيس "علي عزت بيغوفيتش" مخاطباً الشعب البوسني بضرورة استقلالها هي الأخرى واعتراف الاتحاد الأوربي بها.

فارتفعت الأصوات مطالبة بذلك، أذكر حينها كيف كنتِ تهتفين له بحماس وتظهرين إعجابك الشديد بشخصيته.

أما أنا ووسط كل تلك الفوضى، لم أكن آبه بشيء سواك، إن أردتِ أن أكون بوشناقي فسأتنكّر لأصلي وأصبح كذلك، إن

أردتِ أن أصبح مسلماً فسأفعل، سأصبح أي شيء تطلبينه مني، المهم هو أن نبقى نلتقي وأن كان لا يتعدى لقاؤنا يومياً الدقائق.

ولكنك وقبل اندلاع الحرب، أخبرتني بأنك ستنتقلين مع والدتك من "سراييفو" إلى مدينة "برتشكو" حيث يعيش أقارب لأمك هناك، ورغم أني كنت لا أعي شيئاً من كل تلك النزاعات السياسية ولكني كُنت أدرك بأن "سراييفو" ستصبح أشد خطراً من أي مكان آخر، وذلك من خد أمي الذي كانت تضربه تأوهاً وهي تستمع للأخبار؛ لذا باركت وداعك هذا!! وليتني ما فعلت.

تعاهدنا على أن نلتقي مجدداً إلى عهد غير مسمى ولكننا سنلتقي بإذن الله، وحين انتهاء هذه الأزمة !! كما كنّا نصفها بحماقة.

سآتي إليك في "برتشكو " لأتقدم لك.

حينها أتذكرين ما الذي فعلته "آمنه" الصغيرة؟! تشبثت بطرف بنطالي وما إن التفتُ إليها حتى مدت لسانها ساخرة وهي تقول: سأتزوجك أنا، سأسرقك منها.

هل تذكرين موقفها الطفولي ذاك؟!

التفتُ إليكِ معلقاً: لديك منافسة هنا.

فأجبتِ بخجل: هذه الطفلة لا يمكن توقع قولها مطلقاً، شقية.

حينها ضربت آمنه على رأسها برقة ومددت لها لساني وقلت: سأتزوج "فاتيم" لا أنتِ.

وما كنتُ أعتقد بأن المذابح الصربية ستطال بداية "برتشكو "!!

*****

كانوا يقولون:

تدخلت الأمم المتحدة سريعاً لإيقاف نزيف الدم في سلوفينا وكرواتيا واعترفت سريعاً باستقلال الجمهوريتين وكذلك فعل الاتحاد الأوروبي وأوقعت عقوبات على يوغسلافيا والصرب ولكنها مع ذلك تقاعست عن الاعتراف باستقلال البوسنة والهرسك وانفصالها عن الاتحاد اليوغسلافي السابق**!!**

هل أقول بأنني قد متُ بعد سماعي مذبحة "برتشكو" ؟!! وانقطاع كل وسائل الاتصال معك يا "فاتيم" أم أنني قد متُ قبلها ؟؟!يوم أن غادرتِ "سراييفو" ؟!

لا يهم متى متُ ولكن كيف متُ، هو الأهم.

حينما كانت تصلني أخبار ما يحدث في "برتشكو"، أصبتُ بالجنون، حتى أني ما كنت قادراً على الحديث أو الأكل، وأنا السجين في "سراييفو" لا يمكنني الوصول إليك.

تلك الحرب التي اندلعت في أراضي البوسنة والهرسك، تلك الحرب التي وضعت "سراييفو" لمدة أربع سنوات تحت حصار غاشم، وأوقعت بأهلها أقسى أنواع الجوع والقتل والتعذيب وضرب مساجدها وتحطيم جميع أماكنها التراثية.

تلك الحرب لم تبقِ لي شيئاً.

ويحاً لهم.. حتى برج الساعة الذي شهد لقائنا ووعدنا بالبقاء معاً، نسفوه بقنابلهم.

لم يتركوا لي شيئاً، حتى مدرستنا الابتدائية التي جمعتني بك ذات يوم دمروها.

لقد قصفت مدفعياتهم كل شيء.

ورصدت الإنسان والحيوان؛ بل حتى الطير في السماء لم يسلم من قذائفهم.

وأمي التي رفضت بشدة تجنيدي في الجيش اليوغسلافي الصربي؛ إذ كانت تصف الحرب بأنها حربُ تافهة، حربُ خرقاء ظالمة؟!فكيف للجيران والإخوة بأن يقتل بعضهم بعضاً؟!

لذا ما فتئ لسانها من لعنهم وظلت معي لأيام وأيام مع العاملين في نفق الأمل، نحمل الغذاء التي كانت تقدمه الأمم المتحدة ونهربه، كانت أمي تقاتل كبوسنية أرضها تغتصب، لم تكن تقيم لكونها صربية أي اعتبار، حتى أخرسوها بنيران بندقياتهم!!

أستطيع أن أقول الآن أن أمي لم تقدس البابا ولم تقدس الكنيسة يوماً، ولم تقدس أي عرق، أمي كانت تقدس الجيرة والصداقة لا شيء آخر؛ لذا كان آخر شيء نطقته محذرة لي وأنا أمسك بكفها احتضنها بين ذراعي وقد لطخت بدمائها.

"لا تقتل جيرانك يا رادو، مت ولا تكن لك أي يد في هذه الحرب"

ليتني يا أمي كنتُ شجاعاً مثلك لألعنهم كما فعلتِ، ليتني يا أمي كنتُ شجاعاً لأقف متعمداً أمام مدفعياتهم معلناً رفضي لهذه الحرب اللعينة.

ولكنني كنتُ جباناً، كنت واهناً؛ بل أكثر، كنت ميتاً يا أمي أصلاً وهل يسمع الميت الشكوى أو يشعر بألم!! فأنا قد متُ قبلاً حين سماعي بمجزرة برتشكو وحين انقطاع أخبار "فاتيم " عني، لم يكن ليتوارد إلى ذهني سوى أنها قد ماتت مع من مات يومها من الضحايا.

لقد كنتُ أحملك وأضمك من باب الواجب فقط وإلا فاني لم أكن أشعر بأي شيء.

لم أضع على قبر أمي الصليب بل وضعت طوقاً من ورد أصفر، فأمي كانت تقدس الصداقة.

أما والدي فظل يردد بكل عنجهية وتطرف تلك الموروثات اللعينة يبدو بأنه لن يتخلص من تلك العقدة فظل يقول زوراً، بأن جيراننا المسلمون قتلوك !!

ولا أعلم هل يقصد بأنهم قتلوكِ برمي قذيفة عليك!!

أم قتلوك ببنادق الصيد التي كانوا يدافعون فيها عن حقهم المشروع !!

وفي العام الأخير من الحرب يبدو بأن الصرب أرادوا أن يطول أمد الحرب أكثر وأكثر .

لازلتُ أذكر كيف ظل والدي يصفق لي بعد أن غدر بي وهو يراني أحمل مع الجند قسراً لتجنيدي، لتكون يدي معولاً لهدم تلك المدينة التي عشت بها طوال عمري فأي تصفيق استحق يا والدي الآن؟؟!!

أم أن صفقاتك تلك كانت تشيعاً لي ؟!

سحقاً لتلك الحرب التي سحقتنا تحت أطماعها، ودمرت كل ما بقي من آدمية داخلنا ثم لفظتنا خواء لا نملك سوى ذكريات بغيضة تعكر صفونا وتقتلنا بالندم ألف مرة، فلا تستقيم حياة بعدها وإن كثر عدد أنفاسنا وزفراتنا؛ إلا أننا نشابه الأموات ليس إلا.

من يقف في صفوف الجند، حتى لو لم يلقِ بقنبلة أو يوجه سلاحه، فهو سيرى أشياء تفقده إنسانيته!! تفقده كل لذة في العيش، بل ربما قد تصيبه بالجنون!!

ألا فلتسقط يوغسلافيا وليسقط الجبل الأخضر ولتسقط صربيا وليسقط الجميع، ولتبقى "فاتيم" حية.

نُقلت لمعسكر لا أعرفه فلم يكن يتم إبلاغنا مطلقاً إلى أين نسير وإلى أين نتجه، وتم إخضاعنا لتدريبات خفيفة فقط لمعرفة قدرتنا على الخدمة العسكرية، لقد كنتُ أقف أمام خبراء يلقون على أذاننا محاضرات عن أماكن القتل السريع وعن أماكن القتل البطيء أي "التعذيب"!!

لم أكن لأدرك مدى بشاعة ما يجب علينا القيام به؛ لنثبت لهم بأننا صربيين وبأننا قادرين على الموت من أجل بقاء يوغسلافيا متحدة، أقصد يوغسلافيا صربية متحدة!!

إلا عندما وطئت قدمي معسكر "لوكا" بالقرب من "برتشكو" حيث سجن الآلاف من البوسنيين في مناجم وتحت وطأة أوضاع متردية من الجوع والقتل الممنهج يومياً كمجموعات.

أذكر بأنّي حينما دخلت المعسكر ورأيت ما رأيت، شعرتُ برهبة هزت جسدي فلم أكن قادراً على فتح عيني ورؤية ما يحدث.

كان علي أن أقف وأشاهد كل ما يحدث؛ لشيء واحد فقط؛ هو بأن دورك سيأتي للتطبيق شئت ذلك أم أبيت!!

لذلك عمدت على ابتلاع عدة أقراص مذيبات كنتُ قد حزتها قبل خروجي من "سراييفو" .

ولم يكن ليتم تفتيشي، فكان كل ما يهمهم هو تأمين أكبر عدد من آلة القتل، والحق بأن الجميع كان يتعاطَى المخدرات التي تصيب بالهلوسة والتي كانت توزع من الأساس على الجند.

أذكر بأني أصبتُ بانهيار سريع بسبب الكمية الكبيرة التي ابتلعتها.

وبدتُ أتقيأ كثيراً، وباتت رؤيتي مشوشة.

ومع ذلك كان صوت صرخات المعذبين لا تزال تصلني وتجعلني أرتجف بشدة.

غمرني الخوف وأصبحتُ كالمجنون وابتلعت كمية أكبر من الفائتة، ورغم أني سقطت على ركبتي وأخذت أخرج لساني وألهث بإعياء.

لم استطع أن أتحمل ذلك المشهد أمامي، حيث كان جندي يضرب بصخرة رأس رجل مسن مقيد اليدين والرجلين ملقى على الأرض يئن بتوجع، وذاك يهم على رأسه كطاغوت.

حينها ورغم شدة إعيائي وتقيئ الشديد لا أعلم كيف وقفت وتحركت.

من أنا ؟**!**كان ذلك السؤال ينبري من عيني، وشعرتُ بشيء حار يتدفق منهما، وأنا أوجه بندقيتي نحو رأس ذاك الممد ثم سريعاً حركت الزناد وفجرت رأسه، وسط استنكار من الجندي الذي انهار علي لكماً وضرباً على بطني لأني أفقدته التمتع بلذته السيادية بإنهائي حياة ذلك الرجل على هذا النحو السريع**!!**

نعم لقد أنهيتُ حياته ببساطة بضغطة زناد!! لقد فعلت ذلك حقاً.

بعد ذلك لم أعد أشعر بأي شيء.

لكنّي ما إن فتحت عيني باليوم الثاني، حتى شعرتُ بالغضب لإحساسي بأنني لازلت حياً.

فأي إحساس بالحياة أريده وأنا أقف كالجبان ولا أستطيع تغير أي شيء؟!

ما معنى أن تعيش وتتحرك وقد أصبحت عارياً من الإنسان ؟!!

فأي رداء سيسترك بعدها؟!

وأي روحِ ستنحل في جسدك بعدها وتسكنك ؟؟!!

ولكن يبدو بأنهم كانوا يعتقدون بأن يوغسلافيا مهمة وبقائها أهم من بقاء آدميتنا؛ لذلك نقلتُ في اليوم الثاني مع مجموعة من الشبان، لمعتقل آخر، كنتُ أحمد الله حينها بأنني انتقلت من ذلك الجحيم الرهيب ولكن لم أكن أتوقع بأني سأنتقل إلى جحيم مخزٍ وفاضح!!

حيث لم يطلب منّا فيه، إزهاق روح بل الحرص على المحافظة عليها لكن مع دهسها مئات المرات والمرات!!

حُملت مع من حمل يومها؛ لمعتقل لم أكن أعرف بأنه بالقرب من "سربرنيتشا" والتي كانت محمية من قبل الولايات المتحدة وتم نزع سلاح المسلمين منها؛ لحجة أنها أصبحت محمية، لكن ما كان يثير الدهشة هو حضور كل تلك الأعداد التي احتشدت من الجنود تمهيداً لدخولها!!

نزلنا إلى المعتقل وببساطة، طلبُ منا المساهمة والمشاركة في الاعتداء الممنهج على النساء داخل المعتقل، هكذا طلب منا بكل بساطة!!

نعم هكذا أمليت الأوامر للجنود مع التشديد بأن لا تخرج المرأة من ذلك المعتقل إلا وقد حملت في رحمها جنيناً صربياً في وضع لا يمكنها فيه إسقاطه، حتى يبقى بصمة عار تلحقها أبداً طول حياتها؛ وليبقى عذابها مستمراً!!

لم أكد أصدق ما كُنت اسمعه، حتى كنتُ أسير داخل ذاك المعتقل، حيث لا شيء سوى صراخ النساء المعذبات.

حاولت أن أتوارى..

أن أهرب..

أن أفعل أي شيء..

لكن ما من مفر هاهنا، فابتلعت من الأقراص.

ثم دُفع بي لأحد تلك السجون، وما كنتُ أعلم بأني قد دفعتُ حيث اسفح وانتفض الحياة كما الذبيحة.

ويلي... ليتني متُ قبلها.

ما أن وقفت، حتى وجدتُ أمامي امرأة تستند على الجدار، ممزقة الثياب، دامية الجسد؛ بل كانت دمائها تسيل على الأرض، وقد غطت وجهها بكلتا يديها على هيئة ضرب.

لأبصر وأرى، ما تمنيت وقتها، لو متُ قبل ذاك وكنتُ شيئاً منسياً.

رأيتُ سواراً أزرقاً مربوطاً في رسغها!!

فانتفضت وانتفضت..

وانتفضت قدماي مع انتفاضة يديها الوجلة، أما عيناي فقد غارتا غير مصدقة ما تراه أمامها!!

كيف لي بأن أصدق بأن من أراها أمامي هي المرأة التي أحب؟!

هي أنتِ يا "فاتيم"!!

أرخيتِ بيديكِ ونظرتِ إلي بعينين غادرتهما الحياة وغزاهما اليأس وأضناهما القهر.

كانت عينيك من بياض بدا لي بأنه لا يستطيع الإبصار، فارتجفت شفتي باسمك ...

"فـــــــــــاتيم"

لكن يبدو بأنك لم تسمعي أو حتى لم تعرفي من أكون!!

زحفتِ على ركبتيك نحوي في منظر جمدني بمكاني وقتل كل ما بقي داخلي من تحمل وصبر.

أمسكتِ بطرف بندقيتي وأنتِ تنظرين لوجهي، نعم ، لقد كنتِ تنظرين بالفعل لوجهي فلمَ قلتِ ذلك يا "فاتيم" ؟ أم أنكِ حقاً لم تعرفينني؟!

"اقتلـــــــــــــني، أجهز علي أرجوك"

"اقتلـــــــــــــني، أجهز علي أرجوك"

كررتها مراراً على مسمعي، حتى انفجرت عيناي بفيض من دموع القهر والذل فانهرت جالساً على الأرض وطوقتك بذراعيّ وشددتك إلي قدر ما استطعت وصرخت منتحباً: هذا أنا "رادوفان" يا "فاتيم" هذا أنا، هذا أنا.

للحظة شعرتُ بأن رأسك قد هوى على صدري، ظننتُ فيها بداية بأنك قد هدأتِ.

فدفنتُ رأسي على كتفك، أندب بشدة هذه الحرب اللعينة، ثم شعرتُ بيدك تبتعد ورأسك يرتفع قليلاً، وصلني صوتك مردداً اسمي بنبرة عميقة "رادو" فرفعتُ رأسي قليلاً، وفجأة أحسست بحرق وحرارة قوية على ذراعي، تزامن هذا مع صوت إطلاق النار وصوت ارتطام على الأرض فاندفعتِ بقوة كبيرة من على صدري لتسقطي على الأرض برأس مفجر من أثر الرصاص!!

كل شيء تجمد حولي حينها ولم تبق سوى دمائك التي تنهمر من رأسك وتقترب مني.

فجيـــــــــــــعة !!

هل يعبر ذلك حقاً عما شعرتُ به آنذاك؟!

لمَ فعلتِ ذلك يا "فاتيم" ؟؟!!

لمَ نزعتِ مسدسي وفجرتِ رأسك؟!

لمَ اخترتِ أن يكون أخر مكان لك في الدنيا هو صدري ؟!

لماذا لم تهبيني حديثاً يجبر ما عنيته من فراقك؟! يضمد كل أشواقي إليك؟!

لمَ قررت ذلك وحدك ؟! أين الوعد الذي قطعناه سوياً؟! هل كنتِ تعرفين فيمَ فكرت حينها ؟! لقد فكرت بأن أهرب معك أو أن أقتل بجانبك!! ولكنك حرمتني من ذلك وتركتني وسط دمائك أصرخُ بهستريا وأضرب رأسي على الجدار كمن مسه الجنون وأصيب بصرع.

أصرخ باسمك ولكن لم تكوني لتردي!

آه يا "فاتيم" ليتك وضعته على رأسي قبلاً وأرحتني من كل هذا العناء!!

ليتك فعلتِ ذلك..

في ذلك الوقت كانت مجزرة "سربرنيتشا" قد وقعت.

أما أنا فكنتُ قد واريتك التراب ببقعة بالقرب من هناك، وكنتُ كلما مسحتُ الدماء من على وجهك يزداد؛ فلم أكن أدرك حينها بأنها دمائي التي تنهمر من على رأسي.

بعد ذلك طُلب مني وأنا الواقع تحت فجيعة فقدك وسكرة المخدرات بأن أساعد في دفن الدفعات الأولى التي تم قتلها في "سربرنيتشا" كان الوقت ليلاً والسماء معتمة.

كنتُ أسحبُ جثثاً لرجال وأطفال ونساء وأطرحها في الحفرة، يدي شاهدة على العدد الذي حملته !! مهما أنكروا بأنها ليست إبادة عرقية.

وكنتُ أتساءل هل كان ضرورياً أن يموت كل هؤلاء مقيدين!! من أجل رسم خارطة جديدة؟!!

وحينما كنتُ أدفع بجسد طفلة ممسكاً برسغها أحسستُ بنبض ضعيف فيه فارتجفت، تلفتُ ناظراً لكل الوجوه حولي والتي كانت منهمكة هي الأخرى في الدفن؛ بل بعضهم كان يضحك بهستيرية واضحة، فسحبتها من البقعة وابتعدتُ عدة خطوات، ثم وقفت لأنظر إليهم فلم ينتبه أحد أو يسألني عن ذلك.

ثم سحبتها مجدداً لمسافة أطول ولم ينتبه أحد!!

ذلك الرسغ الذي كان ينبض بالحياة، أنعش قلبي بعد موته، فلم أتردد ثانية بعد ذلك، وحملتها على ظهري وطفقت راكضاً تتراقص أقدامي من تحتي، دون أن أنظر ورائي ثم اختبأت خلف عربة مخصصة لنقل الجنود.

ألتقط أنفاسي بوجل وخوف شديد.

وضعت الطفلة في الصندوق الخلفي، ثم صعدت العربة واندفعت بها كالمجنون بأقصى سرعة، تملكني خوف وفزع جعلني أصاب بالهلوسة فصرت التفت كل حين للوراء مطمئناً بأن لا أحد يتبعني.

ورجل مثلي عاش تحت القصف ما يقارب الأربع سنوات، كان يعرف يقيناً أي الأمكنة استطيع عبورها دون أن أصطدم بجنود

الصرب، كنتُ موقناً بأن الله وحده كان يحميني ويرشدني وإلا فأن عيني لم تكن لتبصر طريقها.

بعد أن قطعت مسافة طويلة توقفت؛ لأتفقد تلك الطفلة في الصندوق، رفعت عنها الغطاء وتفحصت قلبها ورسغها، كان نبضها لا يزال ضعيفاً أثر إصابتها الشديدة، ظننتها تحتضر، ولاحظت بأن جيبها منتفخ قليلاً، فأدخلت يدي فيه لأجد عود حلوى!!

أحسستُ بالقهر حينئذ وبكت عينايّ؛ بل انفجرت بالدموع، كيف لأولئك الأوغاد أن يحرموها من تناول الحلوى؟!

وما إن وضعتُ يدي تحت رقبتها مطمئناً على حرارتها، حتى تحرك رأسها قليلاً وبرز وجهها؛ لأفجع مرة أخرى!!

حيث لم تكن تلك الطفلة سوى أختك آمنه يا "فاتيم" فانفجرتُ باكياً غير مصدق ما أراه!!

وبعد طول بكاء ونحيب وصدمة أعيتني وأربكتني، ربطتها خلف ظهري وشددت عليها وأكملتُ الطريق على قدمي لأصل إلى "سراييفو" من ناحية نفق الأمل.

وما إن رأيت سيارات الصليب الأحمر التي كانت تُدخل الدواء، حتى تنفست الصعداء أخيراً، طلبت الحماية لأني هارب وسلمتُ آمنه وقد صادف بأن الرجل الذي استملها مني يعرفني؛ فطلبتُ منه تسليمها لجارتي "أرجينا" ثم هويت.

كان والدي قد لحق بوالدتي أثناء ذلك في "سراييفو" ومع هذا لم أذرف على وفاته دمعة واحدة، فكل الذنب والثقل الذي كنتُ أشعر

به كان بسببه، لم أكن وحتى اليوم قادر على الغفران والصفح عنه.

في تلك الفترة كانت وسائل الإعلام تنقل خبر انتحار ابنة "راتكو ملاديتش" والتي قالوا بأنها لم تحتمل ما كانت تسمعه من جرائم والدها، وعجباً لم ينقل أحدهم خبر أولئك الفتيات الصغيرات التي شهدت أشجار البوسنة بأنهن فضلن أن يُشنقن على أغصانها على أن تدنس أعراضهن !!

لم يذكر أحدهم خبرك يا "فاتيم".

بعد ذلك يا "فاتيم " قضيتُ أربعة أشهر حتى وضعت هذه الحرب أوزارها أخيراً بعد اتفاقية "دايتون".

عولجت خلالها من أثر ما أحدثته داخلي تلك الكميات التي ابتلعتها من المخدرات كما وأني قد أصبت بنزيف داخلي في بطني والأسوأ هي إصابتي بالهلوسة أثر ما أحدثته كل تلك المشاهد الدامية في ذاكرتي، أشدها موتك يا "فاتيم".

بعد خروجي من المستشفى وجدت نفسي وحيداً، مثقلاً بذكريات موجعة.

وحدها "أرجينا" هي التي رحبت بعودتي دون أن تسأل عن أي شيء، حتى عن ما حدث معي أو معك يا "فاتيم".

ربما لأنها قد أدركت أي معاناة كنتُ أشعر بها آنذاك.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها تلك الطفلة التي وهبتني دفعة للخلاص والهرب؛ لمجرد بأن رسغها كان ينبض بالحياة، تلك الطفلة التي أشعر بأن الله قد وهبني الحياة مجدداً بسببها.

حضرت مع "أرجينا" للاطمئنان على صحتي حيث كانت صحتي لا تزال مترديَة.

لكن تلك الطفلة يا "فاتيم" كانت حينها تملك ذاكرة من بياض، فلم تعرفني ولم تعرف "أرجينا" ولا أي أحد، كانت كما وأنها قد ولدت للتو.

حينما سألتها إن كانت تعرفني ولم تجب، أحسست بخيبة وتغير لون وجهي، وربما قد شعرت هي بذلك فأخرجت من جيبها عود حلوى ومدتها نحوي.

وحينما رأيت الحلوى بين أصابعها، انهالت كل تلك الذكريات تضرب رأسي وتحدث وجعاً بأعماقي.

فآمنه كانت تحب الحلوى كثيراً وهي صغيرة وكنّا نشاركها أنا وأنتِ الحلوى؛ بل كنتُ في أحيان كثيرة أختطفها من يدها فقط لأمازحها.

لم استطع أن أتمالك نفسي حينها، فضممت كفيها وبكيتُ كثيراً يومها، ولم أستطع تناول تلك الحلوى مطلقاً.

ومع أني حرصت بعد ذلك على إعطائها الحلوى لأنها تحبها، لم استطع أن أشاركها ولو لمرة واحدة، لم أستطع أن اختطفها من فمها كما كنتُ أفعل ذلك أمامك.

*****

لا تزال كلماتك "يا فاتيم " التي أخبرتني بها قبل خروجك من "سراييفو" برغبتك بالعيش فيها والموت فيها تصول في ذهني وتجول، مما دفع بي إلى حمل ما بقي من جثمانك و دفنه تحت تراب "سراييفو" .

والحقيقة بأنني فعلت ذلك؛ لتبقي بجواري، حتى لو كان بضع منك، ورغم أنّي قمت بذلك بدعوى تنفيذ وصيتك إلا أنني شعرت حينها بأنني قذر وأنا أنبش التراب عن قبرك، أحسست بأنني ألوث طهرك بفعلتي تلك.. لكـــــــــــن..

ما إن أبصرت السوار حتى سقطتُ مغشياً علي من كثرة البكاء.

لم تمض أيام بعد ذلك حتى تم القبض علي وإلقائي بالسجن.

عشت سبع سنوات من عمري فيه، خضعت حينها للعلاج بسبب ما كان ينتابني ليلاً من كوابيس ترهقني ومن صوت صراخ ذلك الرجل المسن بالتحديد، فما عدت بعدها استطيع النوم إلا بمهدئات.

كنتُ قد عانيت كثيراً، وتعبتُ كثيراً وقرأت كثيراً وفي السجن صليت أول صلاة لله باستقبال القبلة، وكان من المفترض أن أفعل ذلك سابقاً.

أسميت نفسي "علي" باسم الرجل الذي كنتِ معجبة بشخصيته كثيراً.

لا أدري "يا فاتيم" كيف أصف لك أيامي هناك ؟!

ولكن بعد خروجي من السجن.

وحدها "أرجينا" أيضاً استقبلتني بحفاوة وابتسامة كما كانت تفعل دوماً.

بعد ذلك بدأ الجيران يسألون عن ما حدث في "سربرنيتشا" خاصة بعد أن تم اكتشاف المقابر الجماعية، ولأنني كنتُ ألتزم الصمت، بدأ الحديث يكثر عن سبب وجود "فاتيم" هنا.

بل تجاوز بعضهم الحد وأشاعوا بأنّي إن لم أقتلها على الأقل قد حضرت قتلها وشاهدت دفنها دون أن أفعل أي شيء؛ لذا أنقذتُ آمنه!!

لم أكن بقادر على الدفاع عن نفسي.

إذ كيف يجرؤ قلبي أن يقول بأن "فاتيم" قتلت نفسها بين ذراعي وبسلاحي!!

وهي التي وثقت بي كل هذا العمر !!

أفضل أن أتهم وأحاكم بهذه التهمة على أن ينطق لساني بذلك.

"فاتيم " كنتُ طهراً وظللت طهراً وإن حاولوا أن يلوثك.

أذكر حينها بأن "آمنه" قد استقبلتني مع أرجينا وكان عمرها آنذاك سبعة عشر سنة.

وما إن نظرتُ لعينيها حتى شعرت بأن كل خلايا جسدي توقفت، فقد كانت عيناها كما عينيك بالضبط يا "فاتيم" إلا أنها أدكن قليلاً .

فتعمدت بعد ذلك تحاشيها لئلا انجرف يوماً وأظنها أنتِ، كنتُ أخشى ذلك حقاً.

اعذريني يا "فاتيم" فأنا كنت أُشّبِهُ كل ما هو جميل بك وأراك في كل شيء جميل حولي.

وحينما مات "علي بيغوفتش" شهدتُ جنازته مع كل تلك الحشود، فقط لأنني أعرف بأنك لو كنتِ حية لفعلتِ ذلك وحينها أحسست بشيء غريب، أحسستُ بكفك وهو يمسك بكفي ويضغط عليه بلطف، لقد شعرتُ بحضورك حينها، وتمنيتُ لو كان بإمكاني معانقة ذلك الشعور، وحينما التفت كانت "آمنه" تقف بجوار "أرجينا" بمحاذاتي تنظر إلي!!

هل أحدثك عن آمنه يا "فاتيم"؟!

آمنه تختلف عنكِ كثيراً؛ فهي جريئة ، قوية، وعنيده، تتحدث عن رأيها بكل اعتزاز وشجاعة. هي صاحبة للغاية؛ فحضورها يشبه الشمس لا يمكنك إلا أن تراه أو أن تشعر بدفئه على الأقل.

كنتُ أعلم بأنها تحمل شكوك حولي، وربما تساءلت كثيراً عن هذا الرجل الذي يسكن بجوارها ويرعاها مع "أرجينا"؛ لذلك كنتُ ألحظها وهي تسترق النظرات إلي وتفتش في أشيائي كلما سنحت لها الفرصة.

ربما لأنها كانت تشعر بأني مرتبط في ذكرياتها بشيء ما ، فأنا لا ألومها.

لا أعلم لمَ شعرتُ ذات مرة بضعف وأنا أنظر فيّ عينيها فقررت بأن أسمح لها بكشف ذلك، وسمحت لها بالدخول لعالمي، وكشف بعض أغواره.

وشيئاً فشيئاً بت أتحدث معها بارتياح ودون كلفه، لكن كان النظر لعينيها يرهقني، يزعجني أحياناً.

ولكن هل تصدقين يا "فاتيم" انه بعد ذلك أصبحتُ لا أطيق أن تبعد عينيها عنّي أو تخفيهما بكفيها؛ كنتُ أشعر وكأنها تحرمني عن النظر إلى عينيك، ولا أعلم منذ متى بدا هذا الشعور يلتصق بي؟!

هل أخطأت يا "فاتيم" هل أشعرك هذا بالغيرة ؟!!

لازلتُ أحبك يا "فاتيم" ولازلتُ أردد وأقول بأنكِ لي.

وأجد نفسي فارغاً دونك لا أستطيع كتابة أي شيء.

"علي أندريتش"

أغلقتُ الدفتر، ووضعته تحت وسادتي، لم أذرف دمعة واحدة، بل شعرت ببرود سكن في كل خلايا جسدي، وبقيت قهوتي باردة هي الأخرى.

الفصل الثالث عشر : الشاهدة الناجية.

يمكننا الحديث عن الصفح والتسوية ولكن ليس عن النسيان.

علي عزت بيغوفتش.

مضى شهران بعد جريمتي الأخيرة ولا تزال المذكرات بحوزتي.

اجتزت خلالها الاختبارات الأخيرة في الجامعة وتم تخرجي والحمد لله من كلية الحقوق.

تلك الليلة لم تكن مميزة فقط لأني قد استلمت فيها وثيقتي الجامعية، بل لأن كل أهل البوسنة والهرسك كانوا يجلسون ليلتها أمام شاشات التلفاز، بانتظار مشاهدة محاكمة "كراديتش" بترقب وشغف.

كنتُ أجلس حينها بجوار العمة "بهيرة" والحاج "حسن" وكانت أعيننا مثبتة على التلفاز بانتظار أن تبث تلك المحاكمة.

وأخيراً تم بثها وعرضها، حيث جاءت فيها تلك الأقوال على لسان "كراديتش" التي دفعت بالبوسنيين للسخط أكثر ووصفه بالمجنون!! بل لم تخل ملامح أعضاء المحكمة - الذي كان واضحاً بأنه يستفزهم بحديثه- من السخط هي الأخرى.

"لم أكن يوماً عدواً للمسلمين وكنت صديقاً لهم، سراييفو مدينتي وكل الروايات التي تقول بأننا قصفناها لا أساس لها من الصحة، وكل قذيفة سقطت على المدينة تؤذيني شخصياً.

إن أي صراعات نتجت عن انقسام يوغسلافيا في التسعينات هي نتيجة حتمية لنزاع الصرب والكروات والمسلمون، ولكن كل ما فعله الصرب يعامل بوصفه جريمة وهذا يدل على أن كل الأدلة مفبركة"

كانت أعين "بهيرة" و"حسن " تتسع وتضيق في صدمة وهما يستمعان لتلك الترهات!!

بعد ذلك بدأت مذيعة الأخبار تعلق قائلة : "تحدث بعد ذلك "كراديتش" المتهم بارتكاب جرائم إبادة أمام القضاة، عن قضية شعبة التي وصفها بأنها عادلة ومقدسة، مؤكداً بأنه لم يكن ينوي أبداً اندلاع حرب البوسنة والتي خلفت مئة ألف قتيل، ورفضت محكمة العدل مطالب "كراديتش" لإعطائه مزيداً من التأجيل وأمامه أيام فقط للإدلاء بشهادته قبل أن يبدأ المدعي العام في عرض دعواه ".

حينها ضربت "بهيرة " على الطاولة بانزعاج وهي تصرخ قائلة: هراء، أغلقي هذا التلفاز.

ثم بدأت تضرب على صدرها وهي تتنفس بصعوبة وتقول: "لطفي"، ألم يمت باستهدافه بنيران القناصة أمام المخبز؟!!

نهض "حسن"؛ لتهدئتها وأخذ يربتُ على كتفيها، أما أنا فقفزت سريعاً وأغلقتُ التلفاز.

وظلت العمة "بهيرة " على هذه الحالة تبكي وتنتحب، والحاج "حسن" يذكرها بالله وبالقضاء والقدر، أما أنا فقد عدت إلى غرفتي.

جلستُ على السرير ثم أخرجت من الدرج وثيقتي وأخذت أنظر إليها.

أحسست بأن عينيّ تغرقان وتعود بي الذاكرة لأسمع صوته الدافئ وهو يقول: أنا أتوق لذلك حقاً يا "آمنه".

صوت ضحكاتي وأنا أقول: أتمنى أن أقف مدعية عامة أمام "كراديتش" و "ميلاديتش" تصور!!

صوته وهو يقول: ليس الإنسان بما يفعل؛ بل بما يريد، بما يرغب فيه بشغف.

ابتسامته وهو يتم : وأنا أتوق لذلك حقاً يا "آمنه".

كان صوت بكاء "بهيرة " يصلني وأنا أردد بأعماقي كلامه "ليس الإنسان بما يفعل؛ بل بما يريد بما يرغب فيه بشغف".

حركت رأسي ببطء نحو وسادتي ثـــــــــم ..

مددت يدي وأمسكت بالمذكرات، فتحتها ثــم التقطتُ القلم وبدأت أكتب وما إن انتهيت، حتى اعتدلت واقفة، عازمة على الخروج.

مشيتُ سريعاً، وعبرت من ذات الطرق التي أعتدت المشي فيها دون خوف أو قلق حتى وصلت للمقبرة وعند قبر "فاتيم" وضعت المذكرات، ثم غادرت.

هي كتبت :

أليس من الغريب أن تحمل اسم أكثر شخصيتين متناقضتين في البوسنة؟!

ومع هذا يظل الإنسان بما تحمله روحه لا باسمه.

سيد "علي" أو "رادو"

تلك الشمس التي وصفت، قد قررت أن تكون بين الشهود وتدلي بشهادتها وهذا ليس لشيء إلا لأنك أخبرتني ذات مرة : "بأن الإنسان ليس بما يفعل بل بما يريده، بما يرغب فيه بشغف".

ذلك لأنك أخبرتني، بأن أفعل ما أؤمن أنا به، لا ما يمليه علي غيري.

لذا حينما أعود من "لاهاي" بإمكانك مقاضاتي على سرقة مذكراتك والتسلل لبيتك وحفر حديقتك وسرقة النظر دوماً إليك ومراقبتك، ولا تقلق، فلن أعين محامي لي، لأنني أعترف بكل جرامي التي اقترفتها ضدك، ومع هذا أريد أن أقول لك بكل بوضوح بأني سأرتكب جريمة أخرى و"سأسرقك" يوماً كما أخبرتك حينما كنتُ طفلة، لذا عليك انتظاري.

آمنه حدجتش.

الفصل الأخير : ولعِق الحلوى.

دوماً هنالك يومٌ جديد وأملٌ جديد وحلمٌ جديد وغدٌ سعيد أيضاً.

كنتُ أضع يدي على قلبي وأنا أتنفس الهواء، فإحساسي يومها كان مزيجاً من الاضطراب والشجاعة والفخر أيضاً، مشاعر لا يمكنني وصفها وأنا أجلس بين الشهود، بانتظار بدء المحاكمة، ومثول "كراديتش" وعرض المدعي العام لأدلته.

كنتُ انظر لعينيّ "كراديتش" وهي لا تزال كما كانت بجبروتها وكبريائها المصطنع!! وتفاصيل ذلك اليوم تعبرُ ذاكرتي بكل وضوح حينما رأيته أول مرة وكأنها قد وقعت بالأمس!!

وأخيراً جاء دوري ووقفت وأقسمت بأني سأقول الحق كما رأيته، فأشار لي القاضي بالبدء في الإدلاء بشهادتي، تنفست بعمق ثم شرعتُ قائلة: في عام ١٩٩٥م وبجوار القسم الذي فُصلت فيه نساء " سربرنيتشا " وأطفالها عن رجالها وصبيانها.

ربت هذا الرجل على رأسي، حيث لم أتجاوز حينها العاشرة من عمري.

ثم أشرتُ إليه وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة بحدة وأتبعت: وقام بإخراج عود حلوى من جيبه وأعطاني إياه *

ما إن وصلت الترجمة للقاضي حتى دقق النظر نحوي مستفهماً بنظرات دهشة واستنكار، رأيتها أيضاً على وجه "كراديتش".

---

*: ذكر أحد الشهود بأن كراديتش قام بالفعل بإعطاء طفل حلوى قبل أن يأمر بقتله !! وهذه القصة هي ما أوحت لي بهذه الرواية.

فأتبعت: نعم لقد أعطاني عود حلوى، وما إن استدار حتى رفع يده معطياً أوامره للجنود بالإبادة، لقد قال بالحرف الواحد "أبيدوهم" وما هي إلا لحظات حتى بُدِأ التنفيذ.

لقد أعطاني عود حلوى وقد شغفتُ بها..

صمتُ قليلاً وأنا أشعر بدموعي تنهمر ثم أتبعت بتأثر: نعم "رادوفان كراديتش" هذا، لم يهبني فرصة لعقها.

تنفست بعمق ثم أتبعت: ولكن "رادوفان" جارنا والذي كان جندي تحت قيادته أنقذني ووهبني الكثير من أعواد الحلوى ولم يحرمني من فرصة لعلقها.

بعد ذلك عدتُ لمكاني أمسح دموعي وأنا أشعر بالفخر والاعتزاز وأشعر بأن "فاتيم" كانت تربت على كتفي وكأنّها تبارك لي.

بعدها بأيام ركبت الطائرة عائدة لمطار "سراييفو".

وما إن وصلتُ ونزلتُ من الطائرة حتى غمرني الفرح وأنا أتنفس هواء "سراييفو" وأحسست بأنها المرة الأولى التي أتنفس فيها هوائها.

حينما تقوم بعمل مختلف، تشعر وكأن كل شيء حولك أصبح مختلفاً، أصبح أجمل.

اشتريت أعواد حلوى، ثم خرجتُ من المطار لأجد شخصاً لم أتوقعه يقف لاستقبالي.

كانت أمي "أرجينا" واقفة تبتسم والدموع في عينيها وهي تقول بصوت يهتز: أهلاً بعودتك "آمنه".

ثم صمتت قليلاً ومدت يدها ناحيتي وأتبعت بتأثر: ألن تعودي إلي؟

حينها أحسستُ بدموعي تنفجر فألقيت حقيبتي، واندفعت نحوها واحتضنتها وأنا أبكي كالأطفال، وهي ما زالت كما كانت بحنانها المعهود تربت على كتفي وتقول: لقد أحسنتِ يا آمنه، أنا فخورة بك جداً ، كم اشتقت إليك يا شقية.

بعد ذلك ركبنا سيارة نقلتنا إلى حيث المنزل.

وما إن أنزلت حقيبتي من السيارة، حتى عرجت عيناي على منزل "رادوفان".

حينها أمسكت "أرجينا" الحقيبة وأخذتها من يدي وهي تقول: "سأحمل حقيبتك وأدخلها للمنزل، إنه بمنزله بانتظارك "

أومأت موافقة ولا تزال الدموع لم تجف من كلينا.

ثم انطلقت نحو بيته، عبرتُ حديقته وأنا أنظر لذاك المكان الذي حفرته قبل عدة أشهر وقد نما فيه الزرع.

طرقتُ الباب ولكنّي لم أنتظر ثانية واحدة، فدفعته وأنا أحدث صوتاً؛ ليعرف بوجودي.

حينها كان "رادوفان" قد وقف وخرج من المطبخ، وما إن رآني أقف أمامه حتى تغيرت ملامحه وكستها الدهشة.

فقلت وأنا ابتسم محاولة دفع دموعي: لقد عدتُ كما وعدتك، بانتظار مقاضاتي.

وأخيراً تبددت دهشته وارتسمت على شفتيه بسمة رقيقة تبعتها ضحكة غير مصدقة ما تراه، غطى عينيه وهو يعلق قائلاً: يا مجنونة !!

ثم ضحك بسعادة واتجه للمطبخ فتبعته.

جلس على الكرسي مسنداً رأسه بذراعه على الطاولة وهو ينظر إلي ولا يزال يضحك، اقتربت منه وجلست على المقعد أمامه.

رفعتُ رأسي قليلاً وسألت دون أن أنظر إلى عينيه: لماذا حملت خطيئة لم ترتكبها؟! لماذا لم تدافع عن نفسك؟

-خطيئة؟!

قالها وقد غارت عيناه قليلاً ثم أتم: أنا لازلتُ غير مدرك لحقيقة موتها، وإن كنتُ كتبت كل ما حدث، إلا أنني في أعماقي لازلتُ أرسم صورة لي ولها مغايرة.

ثبت عينيه نحوي وقد بدا بهما شيء يلتمع ثم أتم: لازلتُ أتصور نهاية أجمل من تلك.

خفضتُ رأسي في صمت للحظات ثم رفعتُ عيني وأنا أشير إليه وقلت: لازلتُ بانتظار حكمك الذي ستصدره في حقي.

ابتسم برقة وهو يحك ذقنه مفكراً ثم قال: لا شيء، لقد تنازلت عن القضية أيتها المحامية.

قطّبت حاجبيّ باعتراض وأنا أُقول: هذا ليس عدلاً، أنا أشعر بالذنب!!

ندت من شفتيه بسمة ودودة ثم اسند رأسه على كلتا يديه وصمت للحظات ظل خلالها ينظر إلي ثم قال: أهلاً بعودتك آمنه.

ثم أتـم: حقاً أنا فخور بك.

أشحتُ عينيّ وأنا ابتسم بخجل وعلقتُ قائلة بكل إصرار: لا يعني غفرانك لي جرائمي بأني سأتوقف، لأنّي وكما قلت لك سابقاً.

نظرت إليه وأتممت: سأسرقك.

وجم وجهه ثم انحدرت دموعه على خديه بصمت،؛ فشخصت عيناه للحظات ظل فيها ساكناً، وأخيراً هز رأسه نافياً ثم قال بصوت واهن: أنتِ شقيقة "فاتيم" التي.. ما زلتُ أحبها.

أطبق شفتيه بوجع ثم عاد وكرر: أنا..ما زلت أحبها.

ورغم أن كلماته تلك قد أوجعتني إلا أني أومأت موافقة وابتسمت بألم، ففاتيم كانت ولا تزال عالقة في كل كيانه!!وأنا أكثر شخص يدرك هذا.

لكن مع ذلك سرعان ما هُزمت وانهمرت دموعي بضعف أمامه.

وكنتُ كلما مسحتها ازداد غشيانها لدرجة حالت معها رؤيتي.

مد يده حينها وأمسك بكفي وأزاحه عن عينيّ لتظهر لي ابتسامته الدافئة، ولتظهر له عينا "فاتيم" التي يحبها هو، فخفضت عينيّ للأسفل قليلاً، حاولت أن أتمالك نفسي.

أخذتُ نفساً عميقاً ثم أخرجت من جيبي عود حلوى ومددته نحوه وقلت: والآن سيد "علي " هل تستطيع أن تشاركني الحلوى؟

تناولها وفتح قرطاسها وهو يُنظر نحوي بعينين دامعتين وبسمة منشرحة ثم وضعها في فمه و..

"لعِق الحلوى ".

***

لم تنته القصة بعد، ففي عام ٢٠١٠م كنتُ أسير مع "رادو" أو "علي" عند نهر "فرلو بوسني" وأنا ممسكة بكفه، توقف عند الجسر وأخذ ينظر للماء، لم تعد عيناه كما السابق بها لمحة من البرود؛ بل غدت أكثر دفئاً ووداً، وكان عود الحلوى يخرج من فمه، إذ أصبحت عادة لديه منذ ذلك اليوم.

تنبه لنظراتي تلك نحوه فالتفتَ ناحيتي مستفهماً فقلت مازحة: "علي " ألا تشعر بالإحراج وأنت تتناول الحلوى هكذا أمام الناس"؟

نظر إلي بامتعاض، ثم أخرج الحلوى من فمه ودسها في فمي ليخرسني وهو يقول: أنتِ السبب.

ثم استدار وأخذ ينظر للماء مجدداً، ويتنفس بعمق.

أخرجتها من فمي وأنا أضحك ثم لعقتها وأسندتُ رأسي على كتفه، فشعرت بذراعه تطوقني.

رفعتُ يدي وأنا أنظر للسوار الازرق وشعرتُ بأن الهواء والشمس والسماء والنهر و "فاتيم" أيضاً تشهد على سرقتي.

تمت ٢٠١٦